سقوط

رواية

شريف عبدالكريم

إهداء:

إلى ذلك الماضي الذي – كلما بعد – تراءى أمامي أكثر حضورا وبهاء.

إلى أمي.. وأبى

و.. محمد جبريل

لا أستطيع الوفاء بما أدين لكم به.

(١)

كانت متعبة وشاحبة، كأنها ترى طائرا خرافيا كبيرا متربصا، يوشك أن ينقض وكنت أهزها كلما أغمضت جفنها، أتأكد أنها واعية، أطلب منها أن تراوغه كما فعلتُ بعدما قطعــت ســرتى قابلة بإبرة وابور ملوثة وضربتني شمس قاتلة في حقل قطن ثم كتان وعندما انفك حزام القرع العوام من حولي وسط ترعة الفِلْفِلَة بعيدا عن خالي عِزْ الرّجَالْ. سألتني عيناها المستــسلمة عن الجدوى وقد تعبت الروح التي راوغت وتشبثت. طاردها، راوغته، هادنها وحاورها فظنت أنها أفلتت، لكنه يفاجئها وجها لوجه، دون أن تملك حياله غير الارتماء متعبة بين مخالبــه، وتسلم بأن الوقت الطويل الذي مر لم يكن سوى هدنة مرعبة، ومراوغة بلا جدوى طالما قرر من البداية أنه قادم.

لم أتعود من مريم الحرايرى نظرات السأم والاستسلام . يحوم الطائر خلف بابها الموصــد وهدومها المعلقة، يجوس في أكواب المياه وزجاجات الدواء كأنما يمهد لانقــضاض مفــاجئ ومريع، يغمض جفناها فأصرخ :

ــ "ما تسيبينيش أرجوكى"

بصعوبة تفتح عينيها، تنبهني لدموعي المتساقطة، أسألها عن شرودها فلا تجيب، كأنما تــراه خرافيا وكئيبا يحوم حول رأسها، مرعبا كلما ضاق محيط دورانه واقترب، هي الآن مريم أخرى غير التي كانت تتجاهله وتصر على أن تتفرج على كل القرى التي آخذها إليها. أقــول لهــا مشفقا: كفي، تقول ألا ترى أن القرى كالنساء، لكل واحدة نكهتها؟ قرى جريئة، تفتح صدرها للقطارات والطريق الزراعي والصخب والشهرة، وأخرى خجولة، تنام في حضن النهر مورقة ووارفة، هادئة وناعسة، وقرى متوحشة، تجوس في الرمال كأيائل جميلة وشرسة،فــضاؤها واسع، وأغنامها برية، يتعانق النخيل في مروجها بتين الشوك والصبار والسنط.

لم تسأم السير بين القرى والكفور والعزب ولم تكف عن السؤال عن أشجار أو نباتــات أو حيوان، حتى طيور السماء وأعشاب الترع والمصارف، الطرق والمدقات والمعــديات، دون أن تنتبه لبشرتها التي اسمرت وشعرها الذي تجعد. كانت تأكل أشياء بــسيطة وجافــة وغريبــة فازدادت نحافة، لكن سعادة من نوع ما كانت تغمرها، سعادة تخيفني إذ تهتم بكــل شــيء إلا نفسها. لم تأبه للتعب أو نزيف الأنف كأنها تتجاهله، شغوفة بالناس، تكلمهم وتعقد صــداقات طارئة في المواصلات وعلى مداخل القرى وفي الغيطان.

تكرر النزيف حادا فكانت تستلقي على الأرض، يصب النــاس المــاء علــى شــعرها مــن الطلمبات، فتستريح قليلا تحت ظل الشجر ثم تبتسم وتواصل المسير. لا تعــود لــشقتها فــي

سليمان عزمي إلا ليلا فتأخذ حمامها . لا أتركها قبل أن تطل في الروب بشعرها المبلول نضرة وسعيدة لتغلق الباب وهى تؤكد موعد الغد لميت العطار. كنت أعلم أنها ستركض في طـرح النهر بين أشجار موز ضخمة فاقعة الخضرة ومثقلة بالثمار، وستجد طريقة ما فريدة وجميلة، تقارن بها بين ظل الموز الكثيف المناسب للظهيرة وظل البرتقال المبرقع بالشمس وستحدق في البرتقال ثم تصرخ منتشية حين تكتشف ـ وحدها – أن أجزاء البرتقال المعرضة للشمس هي التي تنضج أولا، وسوف تسعد باكتشاف الطرق والحواري والأزقة وتشم بانبهار عبق الـدور الطينية القديمة بنفس الإعجاب الذي تحدق به في تمثال أو لوحة في متحف،و سـوف تفـرد رقبتها النحيلة إلى أقصاها لتتطلع للسقوف المتربة والمائلة للسمرة، فتبين حبات العرق حـول طوق البلوزة القطنية ويبرز نهداها الصغيران في شموخ.

كان صوتها يجئ من الداخل فلا أتبينه من وشيش الماء، أعرف أنها تتـرنم أو تغنـى أو تحدث نفسها، تزيل بمائها البارد غبار اليوم عن جسمها، لتدخل السرير منهكة فلا تشعر إلا وشمس النهار تنفذ من شيش النافذة. أبقى في الصالة حتى تأخذ حمامها، أطمئن عليهـا ثـم أعود لحجرتي بمدينة الطلبة. استلقت وهى تحكم الروب على كنبة الصالون سـاكنة وهادئـة، هممت بالخروج وأنا أسألها مبتسما سؤالي المعتاد:

ـ " إنتى زى الفل يا ست هانم .. أمشى أنا بقى؟!"

هزت رأسها قبل أن أجذب الباب، نادت كأنها تحلم وجفونها مسدلة :

ـ "يونس.. نفسي أعيش لحد بكره.. ونفسي اتجوزك.."

بُسْتُ يدها فبدت كأميرة تخرج من حكايات أبى، متعبة ومستسلمة، تصطفي ولدا يتيما، شاطرا ومحبا . احتضنت رأسي إلى صدرها وقالت إنها مدينة لي بما لا يمكنها الوفاء به، ثـم بكـت فسقطت الدموع على وجهي، نظرت لوجهها فرأيتها دما يقطر من أنفها بينما هـي مغمـضة العينين . صرخت كعبد نوبي وجريت إلى المطبخ، صببت زجاجة الماء المثلج على وجههـا . بست يدها فساءت الأمور فهل كانت جدتي بُغداد على حق؟

لم يكن النزيف قد خف حين روعني شحوبها وهى تسألني كأنها تحلم: لماذا لا يكون فرحا بسيطا؟: يحضر حسين بيبرس بماكينة الخياطة لداركم، يعمل بسرعة في خياطة هدوم الفرح، بينما النسوة يلتففن حوله، يصفقن ويغنين أغانيهن الفلاحي فتترك كفه اليمنى عجلة الماكينة ويضعها على فمه مزغردا زغرودة لا تفعلها امرأة في القرية، وتعود جـدتك بُغْـدادْ فتُحَلـل استعمال الحنة وتوزعها بيدها على النسوة والبنات فيما تبدو السعادة الحقيقية حين تطـوقني بذراعيك وتحملني عروسا جميلة بفستان أبيض وطرحة وحذاء لداركم الطينية.

كنت أعلم أنها غير واعية، فجدتي بُغْدادْ ماتت منذ زمن، طوقتها بذراعي كعبد يفر بـسيدته من الموت، نزلت السلم أهرول كمجنون وسط نظرات الناس غير المهتمة في شارع سـليمان عزمي، مشيرا للسيارات أن تقف. كان خيط الدم منبثقا من الأنف وهى علـى كتفـي رخـوة

والسيارات تبطئ قليلا ثم تسرع . كان بكائي مريعا حين صرخت فتوقفت سيارة وانفتح بابها الخلفي، كتمت أنفها بإصبعيَّ وقلت لصاحب الوجه الأبوي:

ــ "إلحقنى بسرعة الله يخليك.. الدمرداش"

أبعدت اللوكيميا عندما خطرت على رأسي كما أهش ذبابة ملحة وأنا أتصفح كتاب الباطنة في خوف . بلعت ريقي فعاودني طعم الطمى، كانت الكلمات واضحة: إرهاق وشحوب ونزيف من الأنف،و زيادة مريعة في عدد كرات الدم البيضاء. توقف النزيف فقلت لابد من التحاليل لكنها صممت على الخروج:

ــ "أنا زى القطط بسبعة ارواح"

وابتسمت فهل كانت تعرف حقيقة المرض؟ كنت أتألم وأنا أراها وحيدة وعنيدة ترفض المزيد من الألم بالرقاد في مستشفي، أبحاث وتحاليل وأشعات وعلاج كيماوي ونقل دم، طريق طويل ونتيجة معلومة، حتى لو زرعت النخاع، من أين يجيء سرطان الدم ؟و لماذا يجيء وعلى أي أساس يختار أصحابه ؟ قرأت في حيرة عينيها الدامعة ما لم تقله شفتاها أن المعركة خاسرة ومحسومة مسبقا، لم تكن تريد أن تضيع الوقت فأصرت أن تغادر الدمرداش، سرت معها أحاول إقناعها بالعودة للمستشفي وعدم اليأس، تقلصت ملامحها وأوشكت على البكاء:

ــ "مش يأس ولا حاجة.. بس طريقة العلاج دى مش هتناسبنى"

وتوسلت وهى شاحبة أن لا أشغل بالى بالموضوع وآخذها لقريتي، ذلك ما يناسبها فعلا، كانت تتكلم كأنها تحلم، لتلف وتلف وتسير بطريق لا يفارق النهر محترسة ألا تضيع البسمة من وجهها وحين يصيبها الإرهاق، ستستريح كنوارة توشك على السقوط على نجيلة خضراء تحت شمس ساطعة أمام دار جدتي بُغْدادْ المسورة بالحناء والمفتوحة على أفق أخضر فلا تسمع سوى خوار أبقار يحتبس اللبن في ضروعها أو ركض خيول جامحة في خلاء. قلت في رجاء:

ــ "أجيب لك ماما أفضل"

قاطعتنى ــ كأن لم تسمعني ــ بكفها في توسل، وتمتمت:

ــ "أبى.. لا مزيد،

أريد أبى، عند بوابة القصر،

فوق حصان الحقيقة، منتصبا من جديد،

ولا أطلب المستحيل، لكنه العدل".

كانت الأم قد انقطعت تماما عن الزيارة،فيما كنت أرى الطائر الخرافي يحوم كصقر، يُضَيّقُ من محيط دورانه ويوشك أن ينقض.

(٢)

لا أدرى هل اختطف الطائر الخرافي مريم أم ما زالت في دار جدتي بُغْدادْ، ولا أدرى لماذا أرقد هنا وحولي كل هؤلاء الناس بينما جدتي بُغْدادْ تفرك النوار المتساقط، الذي كان بالأمس مبهجا في كفيها ثم تبكى. انتثر الجالسون فأوسعوا لرجل لاح لي أنه سيدنا الشيخ مُرْسِي، لم أقو على القيام لاستقباله وعاودني طعم الطمي كلما بلعت ريقي. كأنما بي مرض ثقيل، نفس الدهليز المقابل لسيدي عبد الله، نام فيه أبى قبل أن يموت وإن تبدل السرير بحصيرة ووضعت ترابيزة صغيرة رصت عليها كتبي الطبية وجهاز الضغط والسماعة وبعض الجفوت والمقصات المغمورة بالمطهر، وثبتت بالحائط لمبة نيون تحتها صورة كبيرة لطفل يوشك على البكاء خلف الترابيزة.

نفس الوجوه القديمة المطلة في حب وأسف لا تملك غير المواساة،فهل أخبر أحد أم مريم؟ كنت سأقول ينبغي أن يبلغها أحد، لكن سيدنا الذي جلس في مواجهتي وإن لم يعد جهما ولا مخيفا – كما كان في الماضي – جعلني أصمت، تاه العنوان من رأسي وملأني الإحساس بالرهبة والروعة كأنه سيزعق (ماضيك إيه يا ولد؟). (سمّعْ)؟ لا أذكر الآن آية واحدة من سبعة وعشرين جزءا من القرآن، كأنني تائه ولا أحد من الملتفين حولي في وجوم يود أن يخبرني بشيء. انفتحت وحدها بوابات الماضي عنيفة وهادرة وصافية، حتى سيدنا بذقنه البيضاء وفمه الخالي من الأسنان وعصاه القديمة التي لا تفارقه وعينه السليمة الموشكة على الانطفاء، أصلع إلا من داير أسفل الرأس، يطل شعر صدره كثيفا ومجعدا وأبيض من فتحة الجلباب، تحت شجرة التوت يصر على زكى الحلاق أن يحلق شعر صدره وبطنه بماكينة الرأس، فيمد يده بها أسفل الجلباب فنسمع الطقطقة ونرى أكوام الشعر الأبيض تتراكم بين رجليه، يبص سيدنا لشعر رجليه فيجده كثيفا فيزغد زكى المزين :

ـ "شيل دول بالمرة"

يطقطق بالماكينة على ساقي سيدنا وسمانته، فيما يلم نثار الشعر ويأمرني أن أرميه في ترعة الفلفلة ولا أبسمل.

هو سيدنا الشيخ مُرْسِى بالتأكيد الذي انتقل إلى حافة سريري :

ـ "سلامتك يا يونس يابن الغالي.. سلامتك يا ولد"

أخرج حق النشوق وقبض جزءا بين إصبعيه، دسه في أنفه وأخذ نفسا طويلا ومال برأسه للخلف، انتظر قليلا حتى عطس فتناثر الرذاذ، أعاد العطس فترقرقت عيناه بالدموع وبدا أنه استراح فانفرجت أساريره:

ـ "ما عندكش حاجة يا يونس في الكتب دى تخللينا ننسى النشوق المهبب ده"

و فرد كفيه دون أن ينتظر ردا في تعجب وتسليم:

ــ "ابن الكلب ده اللى بيعدل الدماغ ..ما اقدرش أبطله"

أينتظره الولدان بالخارج؟ هل أدير رأسي لأراهما بجوار الباب، يتكئ عليهما في مشاويره للجامع والمقابر وواجبات الزيارة فيُسَمعانِ الماضي من المصحف، لا يدخلان معه بيوتا، الجامع هو المسموح بدخوله والتسميع على سيدنا في أي مكان وفي أي وقت، في الشارع والسوق والجامع والميضأة، لا ينقطع التسميع إلا وسيدنا في دورات المياه أو في الصلاة، ينتهي فتستأنف التلاوة أينما توقفت دون أن تسول للولد نفسه فيخدع سيدنا ويقفز آية، ولو على سبيل السهو حيث ينقلب سيدنا لوحش هائج، يضرب ويقرص ويزغد بعكازه أي مكان يطوله، إذ لا يغيظ سيدنا أي شيء أكثر من خداعه ونط آية، آية واحدة يرى الولد بعدها من سيدنا مالا يتوقع، لذا يخطئ الولد في النطق أو يتهته كما شاء فجزاؤه الرد مع قرصة صغيرة أو كف أو زغدة لكنه لا ينط.

اختار أبى كتاب الشيخ مُرْسِى حين علم أن كتاتيبنا الأربعة لها نظام واحد، لا تختلف إلا في أشياء بسيطة كقسوة الضرب والصرامة وسرعة التحفيظ، فعلمت منذ يومي الأول أن بإمكاني أن أغير أي شيء بينما لا يمكنني تغيير الكتاب. تدرجت في ألف باء والأسماء وقصار السور ثم أجزاء عمّ وتبارك وقد سَمِع، أنهيت الخاتمة الصغرى من البقرة حتى الأنعام وبدأت الخاتمة الكبرى بالأعراف ولا أذكر ما الذي حدث فتوقفت في الجزء الرابع والعشرين .إذ يتعين للانتقال من مرحلة لأخرى الإجادة والحفظ ووليمة لسيدنا ومبلغا من المال، يعفي الولد من الكتابة في اللوح ويحفظ من المصحف مباشرة بما يترتب على ذلك من نظافة الثياب وتناهى حجم المصحف في الصغر واعتبار الكتاب أي مكان يتواجد به سيدنا وليس المكان المخصص أسفل شجرة التوت أمام داره . تغدو المواعيد مفتوحة لارتباطه بالمدرسة أو العمل في الحقل، فيأتي لسيدنا قبل المغرب أو العشاء ليتكئ عليه ويسمع له الماضي.

ــ "ماضيك إيه يا ولد؟"

ــ "من أول (المص).. لغاية (وإلى عاد)"

يومئ برأسه فأبدأ التسميع، مستعيذا بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، يهتز رأسي وجزعي للأمام والخلف منتظما في التلاوة، خالع النعلين ومربع الساقين، أعيش لحظة التسميع لا غير، أهيئ نفسي للتذكر، عيناي محدقتان في عصاه، تهتز في يده متناغمة مع هزات رأسه المنتظمة طالما انتظمت التلاوة. وسط صخب الكتاب أكون مقتربا من سيدنا، متجاوبا معه كأنما أوشوشه، تتجاوب العصا في رعشتها لاهتزازاته المنسجمة مع سياق الآيات، لا تتوتر إلا إذا بدأت اللعثمة والتهتهة، يتقلقل سيدنا كمن يفيق من حلم ويدير عينه السليمة محدقا، يزداد مدى العصا فتتوه الآيات ويخرج التسميع عن سياقه،بينما يخرس الكتاب كله فجأة كافا عن الصخب ليظهر صوتي وحده ضعيفا وملعثما فيما يكف الرأس والجزع تلقائيا

عن الاهتزاز. يبرز شعر صدره من فتحة الجلباب كالشوك وتبحلق عينه السليمة فأحاول دون جدوى إعادة التلاوة من الآية التي سبقت التلعثم، تنزل العصا على فخذي حادة ومؤلمة حيث لا يحل لي التحرك من مكاني أو التأوه بصوت عال، ينكتم البكاء ويختلط النشيج بالتلاوة فيتعذر الفهم . تنهمر العصي التالية على جنبي فأتلوى، منتظرا إيماءته أن أرتكن جنب الحائط لأعيد الحفظ ومن ثم التسميع بعد انصراف الكتاب، أغسل المصحف بدموعي جنب الحائط وأنا أراجع الماضي ويتطوع عيال ألف باء والأسماء بإحضار حذائي من أمام سيدنا الذي يصرف الكتاب دفعة دفعة:

ـ "بتوع أليف.... انصراف"

يهيج عيال ألف باء، حاملين ألواحهم الصاج والخشبية، يخرجون فيما يبدأ التسميع لولد آخر ثم يمسح الكتاب بعينه السليمة:

ـ "بتوع الأسماء.. يروحوا"

ينطلق من في أسماء الله الحسنى إلى الشارع فلا يتمكنون من اللحاق بعيال ألف باء الصغار وإلحاق الأذى بهم، هكذا يفعل سيدنا، بعدهم ينصرف عيال جزء عم وتبارك وقد سمع، ثم ينصرف أخيرا من في المصحف بعد تسميع الماضي، إلا يوم الأربعاء، ينصرف عيال الكتاب دفعة واحدة بعد تنبيهه المحفوظ:

ـ "النهارده إيه؟"

ـ "الأربع يا سيدنا"

ـ "وبكره إيه؟"

ـ "الخميس"

ـ "هتجيبوا إيه؟"

ـ "المعلوم"

ـ "انصراف!"

و معلوم سيدنا الشيخ مُرْسِي رغيفان من عيش الذرة أو رغيف من عيش القمح أو قرش صاغ، يعاود نفس التنبيه في آخر الشهر:

ـ "بكرة هتجيبوا إيه؟"

ـ "الشهر"

و الشهر هو ما يدفعه العيل أجرا لسيدنا كل حسب فئته. قبل العيد ينبه على العيدية من الكحك والبسكويت وبعد العيد ينبه على الصرافة : قرشين لكل عيل.

يُسيِّرُ سيدنا الشيخ مُرْسِي وحده الكتاب وفق نسق بالغ التعقيد والدقة والاحترام من الجميع،و إن بدا كسويقة . لكل خطأ عقوبة تنفذ وفق نظام صارم لا يخرقه أحد : الحبس بعد الانصراف لمن يلعب ولا يحفظ، قرص الأذن بحصاتين لنزول المخاط من الأنف، الضرب على

الهدوم لمسح اللوح بدون إذن والتبول أثناء النوم وتقطيع الهدوم قبل الأوان، الضرب على الظهر بسير أسود لسب الدين وعصيان الوالدين، البصق في الوجه للشعلقة في الحناطير والتأخر بالخارج، والضرب في الفلكة على مرأى من الكتاب كله لمن يستحم في الترع والهاربين من الكتاب والممتنعين عن الحضور والغائبين دون سبب. كبرت فصار كتابي هو أي مكان يتواجد فيه سيدنا، ولو في المقابر.

قلت مسرعا للمرأة أمام القبر قبل أن تهم بالنهوض:

ـ "اصبري يا حاجة سيدنا جايلك"

ترددت وبحثت في السبت وأعطتني معلوم سيدنا، نبهت عليّ أن أبلغه فلا ينسى:

ـ "سورتين.. واحدة لأمي حسنة وواحدة لجدك عبد النور.. أوعى تنسى!"

في المقابر، لضرورة ما، كان سيدنا يؤجل التسميع حين يزداد الطلب عليه في القراءة،أساعده أحيانا من تلقاء نفسي دون أن يطلب فألمح انبساطا في عينيه حين أجلب له معلوما من النسوة الجالسات أمام المقابر،أو أبلغه أن يقرأ لفلان وفلان، أو أساعده في التلاوة أمام المقابر، أو أستطلع أخبار الفقهاء المنتشرين في المقابر ومدى إعجاب الناس بهم، فيلجأ لرفع صوته أو التجويد أو يلجأ للقراءات السبع فيجتذب أنظار الناس في المقابر. كنت أفعل أي شيء يرضى سيدنا، أجلس باسمه أمام أي قبر وسط دهشة أهله الذين يسكتون عندما أشير لنظراتهم المتسائلة :

ـ "سيدى مرسى جاى ورايا حالا"

و أبدأ التلاوة حتى وإن رفض أهل الميت، فلسيدنا الذي يخب في جلبابه مهابة، ينهب الأرض نهبا لينضم إليّ دون ما اعتراض، ينظر نحوى بهمة كأنما ينشطنى بعينه السليمة، يبدو صوته رخيما وهادئا ومعلما حتى إذا اختفي ضيق أهل الميت وبدوا مقتنعين ومنسجمين، قرأت في عينه السليمة تحذيرا ألا أنساق وراء جماليات التلاوة فأقرأ أكثر من المطلوب: أبطئ حين يرخم صوته ويمطه فيما قبل نهاية الآية بقليل حتى لا أدخل في آية جديدة، آخذ نفسا عميقا ثم نختم بصوت أعلى قليلا وأسرع، " وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين الفاتحة".

بينما لم تقف مهمتي عند هذا الحد، كنت سلاحه الخفي الذي يلجأ إليه عندما يهجم الشحاتون والصغار، يلتفون حول المرأة التي أمام القبر متوسلين:

ـ "رَحْمَة يا خالة.. رَحْمَة ونور"

يتزاحمون ويثيرون الغبار، فيما يستشعر سيدنا بحاسته أن المعلوم قد ينضب من السبت دون أن تشعر المرأة فلا يتبقى له شيء ، يومئ لي بعينه السليمة فأدفع عنها العيال، قد أضرب طفلا بالكف على صدغه لينزجر الآخرون، حريصا في ذات الوقت ألا أثير غضب المرأة فتتعاطف على نحو ما مع المضروب، فأعيد الضرب خفيفا ومغلفا بالرقة ثم أدفعه:

ـ "كفاية يا حبيبي.. أخدت الرَحْمَة.. سيب غيرك ياخد رحمته"

ربما يتدخل سيدنا متوقفا عن التلاوة ومشيرا بعصاه مؤكدا وناصحا لها:

ـــ "مش ها تخلصى كده.. اللى بياخد مرة بيرجع تانى"

يضيف مؤكدا ومشيرا بإصبعه نحو فمه ثم إلى فوهة القبر:

ـــ "بيلخبطوا اللى بيقرا.. وهى دى القراية اللى بتوصل لروح الميت"

فتكف المرأة عن توزيع الرَحْمَة، لكنه يراها غير مقتنعة، يعرف كيف يزيل الشك فينادى بثقة مدعيا العدالة:

ـــ "تعال يا ولد انت.. أيوه الغلبان ده.. أهو ده ما خدش خالص"

فتمد يدها بالرَحْمَة الأخيرة وقد استيقنت عدل سيدنا وتقول لمن يطلب منها الرَحْمَة:

ـــ "سبقت.."

و من يُلِح في الطلب يزغر له سيدنا بالعصا فتكرر المرأة في زهق:

ـــ "سبقت الرَحْمَة يا حبيبي.. الله يسهل لك"

يعود سيدنا لتنغيم صوته ممهدا للختام فيما أكون قد جلست بجانبه، يهب ثواب ما قرأناه للميت وأموات المسلمين، الفاتحة، تضع المرأة معلوما لاثنين في مشنة سيدنا التي يحملها ولدان قويان من عيال الكتاب وتمسح دموعها، يهمس في أذنها ناصحا بينما يهم:

ـــ "بلاش عياط يا عبيطه.. إنتى كده بتعذبيه.. هو في الجنة ونعيمها"

توشك أن تقبل يد سيدنا لكلامه المطمئن والمواسى فيؤكد بعصاه:

ـــ" أهم حاجة ما تنسيهوش .. تجيلوا باستمرار .. زيارة الميت بتسره وتخفف عنه الوحدة.. والقرآن ده بينزل على الميت.. يا سلام يا بنتي.. زى البلسم"

في طريق العودة من المقابر، يوم الخميس يتذكر فيسألني عن الماضى:

ـــ "هتسمع إيه النهاردة؟"

ـــ "من أول (كل الطعام).. لغاية (لا يحب الله الجهر بالسوء)"

ـــ "وحافظ والا لأ؟!"

أنشرح لسؤاله الأخير، إذ أدرك أنه سعيد بمعلوم الترب، أقول كمن ينتظر المكافأة:

ـــ "حافظ يا سيدنا"

ـــ "عال.. عال.. الله يفتح عليك.. مفيش تسميع النهاردة"

(٣)

ــ "معقول مفيش درس باطنة النهاردة؟"

كانت العينان الجميلتان تنظران لي باندهاش، هبت رائحة الليمون وبدا الصوت بريئا كأنما تسائل نفسها، فلماذا تلعثمت حين فاجأني السؤال؟:

ــ "تقريبا اتلغى.. تقريبا أو اتأجل غالبا.. مش عارف"

كنت في السنة الرابعة حين كانت الدمرداش ضخمة وجهمة بطوابقها الستة، مفعمة بالحركة، ينتاب داخلها انقباض وهم بدءا من البوابة الكبيرة السوداء. كان الواقفون على البوابة ينهرون الريفيين كلما اقتربوا بجلابيبهم نسوة ورجالا وأطفالا ومرضى، فيظلون خارج السور حتى موعد الزيارة. كنت أحرص على إبراز الكارنيه وإن لم يعد الصول ينظر إليه ويستعجلنى حين أبحث في جيوبى في قلق متعجلا بيده المتوترة:

ــ "اتفضل يا دكتور.. خلاص.. خلاص!"

ظلت الحيرة تنتابنى كلما دخلت الدمرداش، سلالم وطرقات ومداخل، قاعات ومكاتب، طلبة وأطباء وممرضات، مرضى يتكئون على أصحاء وآخرون ممددون على تروليات، شحوب وألم وصراخ ورائحة أدوية، ضمادات ومصاعد وصوانى أكل مسلوق وقساطر وأكياس بول، تومرجيات يمسحن الأرضيات والحوائط الكالحة، عمال يقفون في مداخل الطرقات، يسدون منافذ الأقسام متى حانت الزيارة، يعلو الصخب والصدى، ينتشر الريفيون في الطرقات تائهين فرادى وجماعات، يسألون:

ــ "اللي عندهم الطحال فين والنبي يا بنى؟"

ــ "بتوع الطحال.. بتوع الطحال.. جراحة وللا باطنة؟"

يزداد التلعثم وعدم الفهم، يتطوع بن حلال بالتوضيح:

ــ "فيه طحال بيتعالج يا حاج وده في الباطنة من هنا.. وفيه طحال بيتشال وده في الجراحة.. ع الشمال.. الدور الثاني والثالث"

تردد ودهشة،رهبة وزوغان بصر لاتساع المستشفي وضخامته. باطنة، جراحة، غدد، مسالك. تيه لا يجدي معه وصف من سبقهم في الزيارة.أورام،أعصاب، صدر وقلب،مناعة وحساسية، متوطنة. لا يعلمون مريضهم في أي قسم بالتحديد، رجال، حريم، صبيان حتى العاشرة يرقدون في (الجراحة حريم) لو رافقتهم أمهاتهم وفتيات في (الجراحة رجال) إذا كان المرافق رجلا. بحث وأسئلة وبص في العنابر، فوق، تحت، للتعرف على مرضى ذوى لون الشاحب بهدوم بيضاء كالحة. دوخات سبع حتى يعثروا عليهم. تبدأ القبلات والسلامات والأحضان والدموع والجلوس على بلاط العنبر لسرد رحلة الوصول . لأن الكل لابد أن يتوه ، يأخذهم مرافق المريض، يخرجهم للشرفة ليريهم أن العنبر لا يتوه . البوابة الكبيرة هناك

والشارع الخلفي هنا ويمكن لمن يتوه أو يمنع من الدخول أن يقف في الشارع الخلفي، يجعل ظهره للكنيسة وينادى المريض، دوخة ومعاناة جعلت الجدة بُغْدادْ لا تنتظـر عـودة الـذاهب للدمرداش، تأمر الناس أن يقفوا ويسلموا عليه ويقبلوه من يده .اعتاد الناس تقبيل أيدي الأب وسيدنا في الكتاب وأضافت الجدة بغداد مريض الدمرداش والقصر، يبوس الكل يده،الكبير قبـل الصغير كأنه اعتذار أو وداع أو عزاء مبكر، فاللقيا مرة أخرى نصيب .

ــ "هو الدرس اتلغى والا إيه؟"

أعادت السؤال ببساطة وتلقائية، اكتشفت أنني لم أتلعثم أو أضطرب بل إنني لم أنطق، لم يخرج صوتي على أي نحو، ولعلها فهمت من إيماءة رأسي أن الدرس قد ألغى، حتى العبـارة التـي سأستأذن بها وأنصرف تاهت فيما كانت عيناها محدقة وشفتاها تستعد لمواصلة الأسئلة:

ــ "متعرفش أحمد والى.. عامل إيه دلوقت؟"

ــ "مين؟"

ــ "أحمد بتاع الاستسقا اللى في باطنة واحد.. بتاع الدرس اللى فات"

اعتقدَتْ ــ من عينيه اللتين لم تنزلا عنى أثناء الشرح ــ أنني أعرفه، أو أن قرابة ما تجمعنـا حين ساعدته ليقوم من سريره عندما تألم من فحص الطلبة لبطنه. كان يتألم لدرجـة جعلتهـا تمتنع عن فحصه وتستدير بعد أن وصلت إليه في صف مكون من عشرين طالبا:

ــ "حرام.. كان كفايه يفحصه الأستاذ وطالب أو اتنان"

انفك عقال اللسان فقلت إنني أيضا لم أفحصه، اصطحبته حتى سريره اعتذارا عما سببه فحص الطلبة له من ألم .كان ممتنا حين اتكأ على كتفي في ألفة وعرى بطنه المتعبة بعروقها الزرقاء قبل أن يستوي على سريره وصمم أن أفحصه، أشار إليها لتجس كبده وطحاله المتـضخمين، امتنعَتْ فصمم، كانت راحتها الصغيرة تفحصه برقة، تنقر البطن بأصـابعها الـصغيرة فيمـا تضايقها الحقيبة المدلاة بكتفها، تزيحها بكوعها الأيسر،فيما كان هو من سريره يبتسم لعيونها الواسعة وشعرها المنسدل وملامحها المغلقة على أسرار كبيرة.

ظل أحمد والى يبحث عنا كلما صعدنا قسم الباطنة بقامته القصيرة وسط الطلبة، يـسمعنا مقاطع من أم كلثوم ونجاة، يرتل سورة مريم ويغنى موالين عن الصبر ثـم يبتـسم وعيونـه مغرورقة بالدموع، كأنه فهم ما قاله الأستاذ بإنجليزية وبلا اهتمام:

ــ "ليس لدينا ما نفعله.. كما ترون.. هذه الحالات تندفع بسرعة نحو النهاية"

كان باستطاعتي أن ألمح أثر الكلام على وجهها حين أدارت رأسها في ذعر، طفرت الـدموع من عينيها وهى تبحث عن كرسي، توشك أن تسقط في فستانها الأصفر الموشى بزهرة عبـاد شمس على الصدر، لكنني لم أدرك على وجه التحديـد أيـن رأيـت هـذا الوجـه الجـاني والضعيف،هززتها:

ــ "فيه حاجة يا دكتورة؟"

نظرَتْ في أسى وشحوب، أ هي التي قابلتها في المشرحة ــ وكنت قادما لتوي من البلدة في أول يوم فرحا بدخولي الكلية – حين رأت أحواض الفورمالين نفاذ الرائحة والجثث نصف طافية؟ تقززنا من المشهد، أدار بعضنا وجهه ووضع الكل المناديل على الأنوف. بدا الألم على الوجوه وإن حاول الكل أن يمسك أعصابه، المشرحة هي التحدي الأول لمن يريد أن يكون طبيبا، وقع الكليسير وسقطت ببلوزتها الصفراء وشعرها المنسدل للخلف. اغرورقت عيوننا من الفورمالين المنبعث من الأحواض، غامت الرؤية واختلطت المشاعر، ربتت جدتي قِشْطَة كتفي وهى تبكى لسفري:

ــ "الواد ده غالى عندي قوى.. تنقلع عيني ولا يبعدش عنى"

وقالت أمي رَحْمَة:

ــ "وحدي الله يا وليه وروّقي.. هو رايح فين؟ دى مصر.. ادعى له يا شيخة"

اشرأبت أعناق البنات وهن يغسلن الهدوم في الترعة وخرج النسوة وهن يسحبن حلمات أثدائهن من أفواه أطفالهن يستطلعن الخبر وطارت إوزتان مسافة طويلة وهبطتا أمامنا بمسافة بعيدة، هبت رياح وزوابع وسار بجواري زملائي القدامى في الكتاب والترب والشحاتون، بكيت بلا صوت حين تذكرت أن خالي عز لم يكن بجانبي، وابتسمت حين خبط على ظهري عَبْدْ الوَهابْ غُصْنْ مذكرا ومحذرا وعاتبا:

ــ "ما حدش يكبر على سيدنا الشيخ عَبْدْ.. ما بتجيش تسلم ليه؟"

و احتضننى بأبوة ونصحتني أمي وهى تسير خلفي حتى المحطة:

ــ "أوعى يا حبيبي لنفسك.. دانت اللي لنا"

و زعق سيدنا الشيخ مُرْسِي من تحت شجرة التوت:

ــ "الله يرحمك يا شيخ عفتاح: البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه"

و أوصتني زاد المال:

ــ "لفيت الدنيا وما حدش خفف لي ركبي.. هستناك يا بن الغالي"

احتضنتني موزة بحرارة فاصطدمت بمصطفي، رأيت أبى على فراش الموت ضعيفا ومتهالكا يومئ برأسه كأنه يراني، صعدت إلى أنفي رائحة الصابون وماء ورد الغسل، حزنت لأنه فقد بصره تماما قبل موته بخمسين يوما دون أن يدرى أحد سوى أمي. اصطفق الشجر وخرج العيال عراة من الترعة، زعق القطار وأخرج معروف طرفا علويا متهرئا وجذعا لسيدة، وضعهما على طاولتين رخاميتين يقطر الفورمالين منهما . قبل أن تسقط كانت ملامحها منقبضة ووجهها شاحب والعرق غزير، سقط الكليسير الذي كانت تضمه إلى صدرها وتهاوت قدماها فتلقفتها قبل الوصول إلى الأرض، حدثت الجلبة والتف الطلبة، كان جسدها ضعيفا وباردا، حملتها خارج المشرحة فيما ثار الذعر بين الطلبة وهم يسترون ساقيها ويحركون الكشاكيل للتهوية . غابت الملامح فلم أتذكرها، أو أقابلها وإن علق اللون الشاحب والجسد

البارد كجسد الموتى بالبلوزة الصفراء والشعر المنسدل تحت الرقبة أسود وناعما. تاهت الملامح أربع سنوات حتى ألقى أستاذ الباطنة قراره بهذا الشكل الجاف دون اهتمام فأوشكت أن تسقط بفستانها الأصفر بزهرة عباد الشمس.

قالت في ذعر:

ـ "أحمد والى مش في العنبر.. سريره خالي..!"

انهبد قلبي في مكانه، أصابني الارتباك ودخلت العنبر، كان سريره خاليا، سألت المرضى ، قالوا إنه خرج، ظل ينتظرنا في اليومين الفائتين، يهم برأسه نحو الباب كلما رأى طلبة، ثم خرج بالأمس، جذبت التذكرة فلم أجد سوى توقيع أخيه بالخروج حسب الطلب: أقر أنا محمود السيد والى أنني أرغب في خروج أخي أحمد والى من المستشفي على مسئوليتي رغم خطورة حالته ونصح الأطباء لي ببقائه وعلاجه، التوقيع/ محمود السيد والى بطاقة :/ لا توجد : العنوان/ نوى : شبين القناطر.

قلت إنني أرغب في أن أراه في بلده، قالت إنها كانت تريد أن تقول ذلك، عرضت إن لم يكن هناك ما يمنع أن تأتى معي لأنها لا تعرف شيئا خارج القاهرة. راودتني رغبة أن أفتح حديثا عن دروس التشريح في السنة الأولى والثانية، كنت أريد أن أصل لنقطة ما . قالت إنها لم تدخل المشرحة، اكتفت بكتب زغلول مهران وأطلس التشريح ، تعرف العضلة، منشؤها ومنتهاها والعصب المغذى والشريان وعلاقتها بما حولها من عضلات وعظام وأعصاب وشرايين وأنسجة وأعضاء، التشريح علم التخيل، لم تشعر بحاجة لدخول المشرحة، حتى في الامتحانات كانت تتعمد أن تأتى دون إفطار وتمر مسرعة ومتقززة أمام أشلاء على ترابيزات متجاورة، تنظر بجانب عينها فقط على الجزء المربوط بسلك ثم تجيب عن السؤال بسرعة وتخرج قبل أى طالب لتفرغ كل ما في بطنها.

ـ "ليه ما يدرسوش التشريح على نماذج شمع؟"

يتشابه الطريق إلى نوى مع كل الطرق المؤدية إلى قرى، لم أمر به من قبل، كنت متأكدا أنه سينحني من هنا وستقف جميزة عتيقة في مدخلها وستزداد كثافة التوت حول الحظائر وعلى رؤوس الحقول حتى أنني قلت للسائق قف هنا. عبرت أنا ومريم جسرا خشبيا ثم اتجهنا يمينا، قررنا أن لا نسأل عن داره ونترك لأحاسيسنا العنان لنراه وهو يهم من فراشه سعيدا بحجم عمره الصغير ليرحب بنا فنخلع أحذيتنا ونتمدد بجواره قبل أن يهم. عند شارع محدد وقفت مريم وقبل أن أسأل عن منزله أشارت نحو جنازته السائرة، انهمرت في بكاء عنيف، قالت إنها كانت تتوقع ذلك منذ رأت سريره خاليا،كانت تعلم أنه خرج من الدمرداش على ظهره، قالت إنها لم تعد تحب هذا المستشفي ولا أستاذ الباطنة الذي يتكلم عن فقد إنسان لحياته بهذه البساطة. تساءلت مريم عن حياة بلا مرض أو معاناة، حياة عادلة وخالية مما

يفجع ويؤلم، تتناسب وعقودها البسيطة، يتفتح الناس فيها كنوار ثم يذبلون متى حان وقت السقوط،بلا معاناة كما تنطفئ المصابيح.

ـ "هل تمرض الملائكة؟"

قررت أن لا تعود إلى المستشفي حتى لا ترى ـ بشكل خاص ـ هؤلاء المرضى وهم يسيرون بلبسهم الأبيض الكالح بصحبة الممرضات إلى معامل التحاليل والأشعة والعمليات كأسرى مرهقين، توشك الدموع أن تسقط وحدها من عيونهم الحيرى. ظلت متجهمة طوال اليوم من ذلك الجو المقبض ورأت شبح الموت يجثم فوق كل شيء رغم ضحكات عمال السلم والزيارة.

مسحت دموعها، قالت إنها كانت متيقنة أن أحمد والى خرج من هنا على ظهره، وما يشغلها الآن هو من الذي سيكون عليه الدور من أولئك الذين يتشمسون في الشرفة الكبيرة، بهدومهم الكالحة وعكاكيزهم التي يتكئون عليها وكراسيهم المتحركة في بطء، في أعينهم غربة، يتطلعون للخروج من الأسر، والتخلص من وخز الإبر وألم القساطر والمناظير ومرارة الأدوية وصراخ الشغالات، بينما لا يعلمون أنهم مندفعون وبسرعة نحو النهاية.

(٤)

عدت من الكتاب ضحى ذلك اليوم، لأمر عبر مدقات صغيرة خلف الحيطــان، آخــذا دايــر الناحية من جهة الحقول، لأدخل مباشرة في فم درب الخارجة، الشهير بشارع سيدي عَبْدْ الله، دون أن يلفت نظري غياب الشمس من أول النهار، أو تعبق الجو برائحة بين العنبر والقرنفل . استأذنت في الانصراف لأول مرة دون سبب فوافق سيدنا علــى غيــر عادتــه، فــي درب الخارجة، انتبهت لصوت فاطمة أم غَزّاوِي ضعيفا وملحا:

ــ "يونس.. يونس.. تعالى عايزاك"

غابت الشمس كما في المغارب. انكمش النوار البرتقالي ثم سقط، وهبــت ريــاح فتــساقط الرذاذ، تكاثفت رائحة العنبر بالقرنفل والغبار. هل تمطر في الصيف؟ ظنت خــالتي احتــرام أن المغرب قد أوشك فلحقت العصر، وصلى محمود مدبولى الظهر والعصر قــضاء، ولــم يعــرف إبراهيم عَبْد المطلب المؤذن أي وقت ذلك الذي يرفعه. أظلمت الدنيا في بعض الأمــاكن بفعــل الضباب، جرى الناس إلى محمد ياسين الساعاتي للتأكد من الوقت . كان يحدق في الــساعات المعلقة والمنبهات وقبل أن يرد يخرج ليتحقق محدقا فــي الــسماء . عــاد النــاس بالبهــائم السارحة، وجرت عمتي فردوس في لهفة وخبطت صدرها، وبدت فاطمة أم غَزّاوِى مــضطربة وهى ترجوني:

ــ "تعالى.. غَزّاوِى عايز يلعب معاك"

إرتبت في الأمر لأن غَزّاوِى، وحيدها الذي يكبرني بسنوات، لا وقت لديه إلا لعمل أحصنة وكائنات ولعب من طين، لا يلعب ولا يعوم، إنما يجلس وحده فيضفي من خيالــه حيوانــات وتماثيل لا ينقصها إلا أن تدب فيها الروح، وغالبا ما يتبرم من وجودي معه لأنني أفــسد مــا يصنعه دون قصد .ازدادت الريبة حين أدخلتني ــ على غير العادة ــ مندرة للضيوف بها كنبة وحصيرة فلم أجد غَزّاوِى ثم واربت الباب.

انتقلت إلى حافة الكنبة، بما يسمح لى أن أرى عبر فرجة باب المندرة الموارب وباب الــدار جانبا من الشارع، لمحت نسوة في مجموعات يحكمن ملاءاتهن السود ويتهامــسن. انقــبض قلبي بشكل خاص حين رأيت زاد المال المغسلة قريبة جدتي بُغْدادْ تتساند على كتف أم زهرة، مرت قوت القلوب وبدوية غز وهانم بنت خنجر ومكة الحبشي ومدللة وأم سند . أحســست أن شيئا ما لابد حدث . تذكرت لهفة عمتي فردوس وهى تنتر طرحتها السوداء وتجرى. هممــت بالخروج لأن غَزّاوِى لم يحضر، أدخلتني أمه وفي يدها طبق من البيض المسلوق، قالت فــي حنو غير عادى وهى تدارى وجهها:

ــ "كل البيضة دى على ما ييجى غَزّاوِى.. راح لغاية دكان منصور"

ثمة دموع كانت تترقرق في مآقيها حين دفعت البيضة نحو فمي في رجاء، انفتح فمى بسنتيه المفلوجتين محرجا ومجاملا، قبل أن أضغط وأقطع أفزعني الصوات:

ــ "يا خسارة شبابك يا خويا.. رحت فين وسبت كوم اللحم يا خويا"

تتابع اللطم حادا والصوات ملتاعا، شقت هدوم من الأطواق حتى الذيل، صوت عمتى فردوس، رفعت سنتي عن البيضة، انهمرت وحدها الدموع، قمت فاحتضنتنى أم غَزّاوِى في بكاء مكتوم:

ــ "هتروح فين بس يا حبيبى دلوقت.. خلليك هنا ''

اقشعر بدني لأولى لحظات اليتم وانفجر النشيج المكتوم متقطعا:

ــ "أشوف أبويا يا خالة فاطمة.. ده كان كويس الصبح"

رأيت أسماء ورقية في نهاية الدرب مع عزيزة شامة، وفاطمة المتشبثة بكتف أمى أخذتها هانم الجناينى لتشترى لها شيئا من عند منصور.

ازدحم الشارع بالرجال ونادى محمد مغاورى المتعكز على عصاه في أرجاء البلــد، كــان يبكى وهو يقول المرحوم الشيخ عَبْدْ الفتاح يونس . هل نفدت كل طرق العلاج هذا الصباح؟: النعناع وقشر الرمان المغلي ومنقوع البقدونس والشعير وشوش الذرة. هل كــان الــدكتور حسين كامل يعلم أنها النهاية فلم يكتب أدوية ورد النقود لأمي ولما ألحت، تركها قائلا وهــو يتعجل الخروج متجنبا النظر نحونا:

ــ "هاتى بهم رطلين لحم للعيال"

تجاوز خالي عز تحت خشبة الغسل سيدنا الشيخ مُرْسِى وسيدنا عَبْدْ الوَهابْ غُصْن والــشيخ مهدى والشيخ عبده أبو احمد في جلابيبهم النظيفة وخطواتهم اللاهثة. كان يئن تحت ســبعة ألواح من خشب معشق بخروم معينة،تسمح بتصفية الماء من تحت الجسد، أوسع له النــاس فوضعها في المندرة على طبلية فوق طشت يتلقى الماء . تقدم المشايخ فخرج باقي الرجال من المندرة، أخذني خالي عز من يدي لأنظر من الشباك المواجه لساحة سيدي عبد الله:

ــ "شوف أبوك.. عشان مش هتشوفه تانى.. خالص"

من الضلفة العليا لشباك مندرتنا رأيت المشايخ يقدمون سيدنا الشيخ مُرْسِى، يصب عبْــد الوَهابْ غُصْن الماء أينما يشير الشيخ مُرْسِى. كان أبــى مــسجى تحوطــه رءوس الرجــال بالطواقي والعمم والشيلان، مستور العورة بقطعة كبيرة من الشاش المفرود، تــلا الواقفــون آيات الطهارة والاغتسال. نزع سيدنا الهدوم عن جسده المسالم بدربة، ضغط البطن من أســفل الشاش فلم يخرج غائط. استدعى فتحي المزين لحلاقة الرأس والعانة ونزع شــعر الإبطــين. بدأ بالوضوء وغسل الرأس والجانب الأيمن ثم الأيسر، أقامه وأجلسه لينزل الماء في الطشت، سد الأذن والشرج بقطعة صغيرة من القطن، رغى الصابونة ودعك بالليفة جسدا شاحبا ترتخي ملامحه في استسلام،مستريحا كأنه نام بعد تعب،نشف سيدنا الجسد وأفرغ عليه زجاجة مــاء الورد وربط الفك السفلي مع الرأس بلثام، أكد تسبيل العينين، تلا: إن المتقين في مقام أمــين.

في جنات وعيون . يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين.كذلك وزوجناهم بحور عين.يدعون فيها بكل فاكهة آمنين. لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عـذاب الجحـيم.لـف الرأس وحدها ثم الرأس مع الجسم ثم ربط الرجلين والذراعين، قال عبْد الوَهابْ غُصْن:

ـ "لفه يا شيخ مُرْسِى كمان لفه.. الخير كتير.. واحد وعشرين متر بالصلاة ع النبي"

أحضر عبد الوهاب ياسين والهادى طبيخ النعش فارغا وخرجت فتحية موسى بماء الغسل للترعة، وضع سيدنا رغيفا وإناء به ماء في موضع الغسل ثلاثة أيام. أحضرت عمتي فردوس لحافها الساتان ومخدتها لتوضع في أرضية النعش، وأصرت أن يغطى بمفرش من سندس ويفرغ عليه زجاجة أخرى من مسك. كنس درب الخارجة من أوله ورش بالماء وفرشت الحصر وجلس الرجال على الجانبين. اقترح عبْد الوَهابْ غُصْن أن تنتقل النسوة لدار حسيبة يونس الأخيرة في الدرب، شدد بعصاه محذرا من الصوات أثناء خروج النعش:

ـ "اللي هاسمع نفسها منكم وديني وما أعبد ما نازل على دماغها إلا بدى.. سمعتوا؟"

و أكد على أمى وعمتي فردوس وجدتي قِشْطَة فيما زغد زاد المال وهانم بنت خنجر المعددة.

خرجت الجنازة في هدوء حتى وصلت فم درب الخارجة، انفجر الصوات حادا ومجروحا وملتاعا، ارتمت أمى على الأرض، شالت التراب وشقت هدومها للذيل، سودت وجهها بالهباب والنيلة، فدقت زاد المال وهانم بنت خنجر الطار الكبير وسارتا بظهورهن خلف الجنازة، شلشل النسوة بطرحهن المفرودة لأعلى وهن ينشرن شعورهن ويضربن صدورهن ويتمرغن في التراب، بهدومهن المقلوبة. بدا أن سيدنا الشيخ عبْد الوَهابْ غُصْن فقد السيطرة على مشاعرهن الملتاعة والمتفجرة وهو يشيح عليهن بالعصا.

سارت الجنازة في داير الناحية حتى مسجد سيدي مبارك، صلوا الظهر والجنازة واستأنفوا السير عبر شارع الجبانة، شارع طويل عكس كل الشوارع، مقبض بلا دكاكين أو ورش أو مقاهي، تقف بيوته موحشة، لم يفكر أحد في طلاء بيته، وإن فكر فليس بغير جير أصفر أو سماوي، لا عيال يلعبون ولا نسوة يجلسن أمام البيوت. مرت الجنازة فأغلقت البيوت أبوابها، دخلت النسوة لينظرن من فوق الأسطح ، صمت مريع، لا يقطعه سوى احتكاك المداسات بالأرض وتمتمة الأفواه بلا إله إلا الله، وصوت المظلات تنفرد مفتوحة لأعلى.

انحرفت مقدمة الجنازة يسارا على طريق المسقاة، أوقفت ماكينة الطحين هديرها، خرج أصحابها وعمالها بهدومهم المعفرة بالدقيق وانضموا للمشيعين، انحرفوا يمينا بعد ماكينة الطحين على المدق الصغير المترب والمفضي في نهايته إلى المقابر.هنا، وبالتحديد عند شجرة النبق الكبيرة،تراجعت الدنيا بصخبها خلف ظهورنا، لا ممر أمامنا سوى مدق مترب، يفضي إلى المقابر بوحشتها وامتدادها اللانهائى، بشواهدها المرصوصة ونبقها وصبارها. عند النبقة التي عرفت فيما بعد باسم نبقة أمي رَحْمَة، ارتبك الناس وارتفعت أصواتهم، بحثوا عنى لأسير

أمام أبى في هذا المدق الموحش، كعادة أهل قريتنا في أن يسير أمام النعش أحب الناس إليـه وإلا تعثر النعش بالميت وثقل . لماذا في كل البلاد تكون المقابر في الناحية القبلية؟.

عدا كسوف الشمس لأول مرة، وهطول الأمطار في عز الصيف، لم تحدث كرامـات يـوم موت أبى وإن شهد الناس ارتفاع النعش ما يقرب من شبرين عن أكتاف الرجال فـذكروا الله ووحدوه، وتساءل عبْد الوَهابْ غُصْن:

ـ "رجل صالح.. من نسل طاهر.. ما تعيطش عليه السما ليه؟"

استقر النعش وسط الصمت المهيب أمام القبر، نقل الجثمان وانطلق صوت الملقن من خلف التربة: "كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخـل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور". "لمثل هذا فليعمل العاملون". "منها خلقنـاكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى". ابن آدم وحوا. ابن آدم وحوا: أذكر ما خرجت عليـه من الدنيا وهو شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. إذا جاءك الملكان المـوكلان بـك وأقلقاك وأزعجاك وسألاك عن الحنان المنان فقل لهما بلسان طلق مبين: الله ربى حقا ومحمـد نبيي صدقا، والقرآن إمامي والكعبة قبلتي، وأنني مسلم ابن مسلمة عشت ومت على قول لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.. اللهم يا أنيس كل وحيد وحبيب كل غريب آنس اللهم وحدتـه، ولقنه عند المسألة حجته، واكتب لنا وللواقفين على قبره براءة من النار وعتقا منهـا يـا رب العالمين. فإن تولوا فقل حسبي الله ونعم الوكيل، حـسبي لا إلـه إلا الله، ذكـرى لا إلـه إلا الله.انهرت في بكاء جرح السكون، التفت الجميع وارتبك الملقن، فرت الدموع مـن الأعـين وربتت الأيدي ظهري وفردت فوقى مظلة تقيني من المطر. مال سيدنا الشيخ مُرْسِى على أذن خالي عطية ليسأله إن كانوا سيقيمون مأتما، فهز كتفيه،مط الشيخ مُرْسِى عنقه وتوجه بعينه السليمة، قال لجموع المشيعين في القرافة:

ـ "كل من حضر عزى.. وشكر الله سعيكم جميعا"

أعاد سيدنا العبارة، كررها عبْد الوَهابْ غُصْن فانصرف المشيعون، اقتصر العزاء على الجنازة دون أن ينصب مأتم أو تفتح مضيفة، أ لصغر سني أنا ابنه الوحيد أم لأنه كـان فقيـرا بـلا عزوة؟ . كنت صامتا بينما كان المشيعون ينصرفون. كان خالي عِزْ الرّجَالْ يرفع يده كرجـل، يشكر سعيهم بصوت واضح ويرد على مواساتهم:

ـ "حياتكم الباقية"

خوت المقابر فعدنا.

(٥)

في لوحه قبل الأخير من سورة الأنفال،كان خالي عز الرجال يسير بيننا مفتوح الصدر، يطل المصحف المتهرئ من جيبه، دون أن يخطر ببال أي منا ولا هو نفسه، أن يكون هذا مشواره النهائي ولوحه الأخير في كتاب الشيخ مرسي، إذ لا يترك المرء الكتاب معززا قبل وصوله في الحفظ للجزء السابع والعشرين.

سرنا خلفه مأخوذين بما يفعله كل يوم في الترعة المملوءة حتى حافتيها من سباحة ضد التيار، متهاديا أمام العيال بجسمه الرشيق تتقاطر المياه منه، غير مكترث بفوات الوقت وتقدم منافسيه، ينقض في الماء الأخضر مرنا برأسه كثعبان، يقب في الوسط، يعوم عوما رائقا ونظيفا ومندفعا للأمام، نجأر نحن الحفاة السائرون على الشاطئ ـ مهملين الأكل والشرب والكتاتيب والبهائم والمدارس والغيطان ـ نصفق عندما يلحق منافسيه، نصرخ بجنون حين يبدو عليهم التعب والانفعال مسرعين في التجديف بعصبية وطرطشة، يتجاوزهم ليبرز من بين عيدان البوص والبردى مختالا كطاووس:

ـ "تسمونى إيه بقى؟!"

نجأر في نفس واحد:

ـ "جمال عبد الناصر"

نسميه جمال عبد الناصر فيبتسم في شموخ ونقلده إكليل الصفصاف المضفر بزنابق الهوك الحمراء.

كان في جلبابه القصير مفتوح الطوق شامخا ومتمردا، تبص قدماه الكبيرتان من الشبشب، يثير الغبار بخطواته الواسعة كقصبة،لا نجاريه حتى في السير، قال كأنما يحلم أو يهذي:

ـ "اللي عايز يشوف العوم الحقيقي.. يقابلنى ع اللبش"

لو أن أحدا غير خالي عز قال هذا الكلام لقلنا إنه مجنون . لم ينزل اللبش أحد وطلع مهما كانت براعته في العوم، ولا تزال السور تقرأ على مقابر الغرقى الذين غرهم العوم فخاطروا ولم يطلعوا، لم تظهر لهم جثة، حتى في مصافي قمرونا التي تحجز ما يزيد عن حجم البطة. يعلم الكل ـ وأولهم خالي عز ـ أن اللبش ليست إلا شلالا ينصب من النهر عبر بوابات خشبية كبيرة في مصب الترعة، ينحر بشراسة في المجرى، فتحدث الدوامات المائية التي تصيب بالدوار، يلف الغريق حتى يدوخ، يدور حتى يتحلل أو يأكله السمك. من يذهب إلى اللبش لا تعود سوى هدومه.

اللبش يا عِزْ الرّجَالْ!،ستسبح ضد التيار حتى المنبع دون إعياء، ستدفع الموج بصدرك البارز ذلك المطل من فتحة الجلباب، وسنمشى أمامك على الشاطئ مخترقين ثلاث قرى: ميت

عاصم وبلتان والعبادلة حاملين هدومك، تزعق كأنما تصارع وحشا كاسـرا بينما الـشلال المنهمر يتدفق. وسط الدوامات والزبد تختفي عن الأنظار، نعبر القنطـرة مـن فـوق، نطـل برؤوسنا الصغيرة في النهر الكبير، نرى الماء يهبط نحو البوابات الخشبية مـسرعا وداهمـا يأخذ في وجهه كل شيء، نحدق بأعيننا في دوامات الماء والزبد منتظرين أن تبرز برأسـك في النهر الكبير، تشير لنا منتصرا فنسميك جمال عبد الناصر فعلا.

سلمنا على سيدنا ووضعنا الألواح أمامه، فتش في ظهر عز عن النجمة التي يرسمها له كل يوم، لم يكتف بشد الياقة لتحت والنظر أسفل القفا كما يفعل كل يوم، إنما دس عينه الـسليمة في ظهره، استغرق وقتا قبل أن يهمل الياقة بيده لينصرف عِزْ الرّجَالْ مرتبكا دون أن يخمن ما الذي كان يدور بخلد سيدنا الشيخ مُرْسِي في هذه اللحظة، بدا قلقا ومرتبكا على غير عادتـه. يرسم سيدنا النجمة على ظهور العيال الذين أغوتهم الترع ولم يتمكن أحد من منعهم، يفـتش عنها في اليوم التالي، كان يفعل ذلك مع عز كل يوم. ناداه حين استدار ليقعد جنـب الحـائط، أمره بخلع الهدوم ليتأكد أن النجمة المرسومة على ظهره هي التي رسمها بنفسه أمس، خلـع عز الجلباب وقرب سيدنا عينه السليمة جدا، هز رأسه ثم أومأ لولدين كبيرين بإحضار الفلكة ووضع قدمي عز بها تمهيدا للضرب، أنكر في البداية وأقسم:

ـ "وكتاب الله ما نزلت الترعة يا سيدنا"

اشتد الضرب فعاد وأقسم بربنا المعبود أن أمه قِشْطَة هي التي حممته في الطـشت، اسـتطاع سيدنا بتوزيع الضرب في أماكن أخرى أن ينتزع الاعتراف:

ـ "سماح النوبة يا سيدنا.. حرمت انزل.. أول مرة وآخر مرة"

كان جسده الرشيق يتلوى في الفلكة ويستغيث، وسيدنا يكثف الضرب بحدة سريعا ومتلاحقـا ويسأل مكررا:

ـ "ومين اللي رسم النجمة؟ اللي رسم النجمة؟.. النجمة يا بن الكلب.. مين؟"

انحسرت الهدوم عن الساقين من شدة المقاومة، بانت العورة، تبـول وتبـرز مـن ضـراوة الضرب:

ـ "يونس يا سيدنا.. يونس يابا مرسى.. يونس.. والمصحف الشريف يونس"

ضربات سريعة ومتلاحقة، زائدة عن الحاجة، لم نعرف إن كانـت عقابـا لكذبـه الأول، أو اعترافه المتأخر، سقط شال سيدنا عن رأسه فاكتفي مومئا للعيال أن يـضعوني فـي الفلكـة، انهالت اللسعات على قدمي، لسعات متفرقة من سوط جلدي، حادة ومؤلمة، تسعى للزجر أكثر منها لانتزاع اعتراف، تنتهي بتعهدي (حرمت خلاص يا سيدنا). من من العيال أبلغه؟ عينـه السليمة ضعيفة، وكنت أرسمها كما يفعل، آمر خالي عز بعـد أن يـستحم ويجـف جـسمه فيستدير، أشد الياقة لتحت وأغمس القلم في الدواة، أرسمها هكذا مرة واحـدة دون أن أرفـع القلم عن ظهره، تجيء حادة ورائعة وصغيرة كنجمة سيدنا.

رمى خالى عز اللوح وأقسم مصمما لأمه قِشْطَة وجدته بُغْدادْ:

ــ "مش رايح الكتاب ده تانى"

كان منفعلا وهائجا، وصف سيدنا بأنه أعور وتربى، كانت أمى تهدئه فيما بانت ملامح الرجولة وهو يدفعها مؤكدا:

ــ "على النعمة من نعمة ربى ما أنا رايح الكتاب ده تانى"

ــ "يا خويا عيب.. اخزى الشيطان واهدى بس"

ــ "مش رايح يعنى مش رايح وآدى اللوح كمان.. هه"

أطاح باللوح بعيدا فوق عيدان الذرة الكثيفة، وهو يحدق في الشمس بطوق جلبابه المنحسر عن عظام صدره البارزة. وبقدر ما دهشت جدتي بُغْدادْ وحزنت جدتي قِشْطَة من جرأة خالي عز الرجال وثورته، كنت سعيدا لكونه أول من يترك الكتاب برغبته، ولم يزل في اللوح الأخير من سورة الأنفال، دون أن يستطيع أحد إثناءه للرجوع.

خرج خالي عز من حظيرة سيدنا دون رجعة. لم تعد تخيفه حكايات بخيت الخارج لتوه من تأبيدة، ولم تطلع له عفاريت جدي عبد النور عند ساقية الزيدانية ولا شوقي الأسود وأخيه عبد العزيز عند مدخل عزبة أبو شارع. طلبت أن يعلمني العوم، قال أنني ولد طيب وجعلني أعوم بجوار الشاطئ ممسكا بفرع صفصاف مدلى في الماء، أتقافز في الماء محتفظا بالفرع في يدي. لم أزعل حين استدرجني وكانت الترعة ممتلئة حتى الحافة، وحملني ثم قذفني وسط الماء، دون أن يربط في خصري القرع العوام، وكنت أغطس وأقب مصارعا الغرق، أستغيث بينما هو على الشاطئ يشتمني، يأمرني أن أكون رجلا وأنطرح هكذا على بطني ثم أدفع الماء بذراعي وأرفس الماء بشدة بقدمي اليمنى، رافعا وجهي عن الماء حتى لا يدخل في فمي وأنفي، كأنني بجوار الشاطئ أو كأن فرع الصفصاف ما زال في يدى، لم أع شيئا مما يقول وأشرفت على الغرق، نزع جلبابه وقفز في الماء برأسه، قب بجواري ورفعني على ذراعيه فطفوت على بطني، أمرني بتحريك الذراعين بالتبادل مع القدم اليمنى، زالت الرهبة فنفذت أوامره. وحدي كنت أطفو على الماء حين سحب نفسه فابتعد الفارس والحصان الموشوم على ذراعه. سألني إن كنت ما أزال في حاجة للقرع العوام كي أتعلم العوم فقلت: لا، قال وهو يبتسم:

ــ "هو ده العوم يا سيدى.. إوعى تكون زعلان"

ابتسمت ممتنا ومرهقا:

ــ "لا والله مانا زعلان"

علمني خالي عز الرجال فيما بعد العوم عكس التيار، وتعدية الهدوم دون أن تبتل من شاطئ لآخر بيدي اليسرى المرفوعة، بينما أعوم بكتفي وذراعي الأيمن،لاختصار الطرق والتحليق على البهائم الشاردة، علمني كيف أعوم كضفدع، دون صوت للتخفي والمداهمة،

وفي أوقات الصفا علمني كيف أعوم بظهري على سطح الماء متأملا السماء من خلال أفـرع الشجر المتشابكة، نصحني أن أفتح عيني في الماء لأشوف كنوز القاع من أسماك وطحالـب وأعشاب وجنيات، ونهاني عن العوم في المياه الضحلة والراكدة أيام الجفاف وحينمـا يرمـى المناخلي حميره وأحصنته النافقة مسلوخة في الماء. لم أهـتم بـضرب سـيدنا أو نجماتـه الممسوحة على ظهري، وقلت لخالي عز في توسل:

ــ "خذني للنهر الكبير".

(٦)

كمن يعوم في ترعة ثم وجد نفسه في نهر كبير، اكتشفت ــ حين واجهـت صـورتي لأول مرة نحيفا في مرآة بطول بابها من الخلف ــ أنني قادم لتوي من هنـاك بـشعري المجعـد والهائش وسنتي المفلوجتين وخجلي من أذني اليمنى المخرومة، كأنما الوقت الذي مر على في القاهرة الواسعة لم يكن سوى دقائق، هل أخلع الحذاء أم لا؟ بدت في ثيابها المنزليـة أكثـر رقة وروعة، كان جلبابها الحريري أخضر فاتحا بنصف ياقة وفتحة منحر ضيقة علـى شـكل سبعة، طويلا ومجسما فبدت أطول من ذي قبل، وكانت حواف السوتيان والقميص تبدو أسفل وردة بلون عباد الشمس استقرت على الصدر بارزة:

ــ "أهلا.. أهلا.. اتفضل.. دقيقة واحدة وأجيلك"

كان شعرها الأسمر ناعما وملموما خلف رقبتها ذيل حصان والشريط بلون الثوب تلفـه حول رأسها،بدت عيناها الواسعة لامعة وبريئة، اختفت جهامة الأسـابيع الماضـية وبـش وجهها المستطيل، دخلت المطبخ فتوقعْتُ أن تعد ليمونا. كأنما الأب في الصورة المثبتة على الحائط غائب أو ميت، صورة وحيدة مصفرة كأنها أخذت من مجلة قديمة لـشاب لا يتعـدى الثلاثين، بينما كانت الأم في صورتها الملونة هادئة وبسيطة، كأنما لا تفكر في شيء كرسالتها المقتضبة والمحيرة:

ــ "احضر ضروري في ١٨ سليمان عزمي.. مريم تموت"

كان التوقيع سريعا بقلم أوشك على الانتهاء: أم مريم، كنت أعلم أن حرس المدينة يمنعـون مقابلة النساء، فكتبت الرسالة، تلقفتها بينما كنت أشرف على الجنون من ترددي على ردهات المستشفي وقاعات الدرس فلا أشم عبيرها كالعادة،انقطعت مرة واحدة، تلقفت العنوان ورحت أبحث عن سليمان عزمي بمصر الجديدة، قالت بينما تقرب عصير الليمون:

ــ "أخذت وقتا كبيرا لتصل إلى العنوان؟"

ــ "الغريب أعمى ولو كان بصيرا.. ساعتين وأنا ألف حول الشارع"

ــ "عند الكلية الحربية.. أمام أرض السباق"

أطرقت لأنني لا أعرف الكلية الحربية ولا أرض السباق، كما أنني لم أتوقع أن التي على مشارف الصحراء والغبار هي مصر الجديدة.

نبهتني لعصير الليمون فرأيت شعرها غير متوج، ليست كما رأيتها في الحلم بتاجها الذهبي مكتملة البهاء، قلت إنني أعتقد أن ثمة تاج لابد أن يكون هنا، وأشرت بيدي فابتسمت على المجاملة، أقسمت أنني لا أجامل إذ كان مكانه خاليا بشكل واضح .. وضوح يدعو للدهشة فدخلت حجرتها ثم جاءت بتاجها الذهبي والملكي مستغربة لأنها لم ترتدى هذا التاج أمام أحد. نبهتني مرة أخرى لكوب الليمون وأشارت بسبابتها وهى جالسة للصور على الحائط: أبى، أمي، مريم تحبو، مريم تلعب مع قطة، مريم في ثانوى، مريم في كرم عنب خلف بيتنا في سورية، ومريم في شاطئ الغرام بمرسى مطروح، كنت أتابع سبابتها الصغيرة، تشير للصور بالترتيب وقبل أن تنتهي أشارت بين نهديها:

ـ "ومريم المحطمة"

تقلصت ملامحها وتراجعت شفتاها عن الابتسام، كبحت دموعا أوشكت أن تطفر، تبادر إلى ذهني أنها متعبة وربما سقطت عن كرسي الركنة بلا مسند، فردت ذراعي لمنعها من السقوط ثم لممته، أحسست أن الأم قد تخرج من غرفة النوم الرئيسية.

ـ "ماما ما قدرتش تنتظرك كتير ومشيت عشان جوزها"

و استدركت:

ـ "بتعتذر لأن كان نفسها تتعرف عليك"

كانت الشقة جميلة وهادئة، الصالة وحجرة الاستقبال تطلان على سليمان عزمي الواسع، بهما مكتبة وصالون ومائدة صغيرة بأربعة كراسى، فيما كانت الصور معلقة على الحائط، وممر يؤدى إلى مطبخ ثم حمام ثم حجرة للنوم على اليسار ثم غرفة نوم رئيسية، يفتح بابها في الممر في مواجهة الجالس في الاستقبال.

ـ "أسبوعين ما تجيش الكلية!؟ فيه إيه يا مريم؟"

أنزلت تاجها الذهبي كأنما لا تريد التحدث في الموضوع، ولم تعد ـ منذ تلك اللحظة ـ تضعه على شعرها، قالت إنها قررت عدم استكمال الدراسة.

ـ "بعد أربع سنوات في الطب تبطلي فجأة كده!؟"

تنهدت، قالت إنها حين أخذت بيدها أوراق التحويل للفنون الجميلة، بعد أول يوم دخلت فيه المشرحة ورأت ذراع معروف تجوس في أحواض الفورمالين، تخرج أطرافا عليا وسفلي متهتكة، توزعها على الموائد الرخامية، استنكرت أمها وزميلاتها وقلن إن هذه حالة تنتاب طلبة الطب في البداية ولا تلبث أن تزول، تراجعت عن التحويل لكنها لم تستطع دخول المشرحة واكتفت بأطالس التشريح الملونة.

حتى في متحفي التشريح وعلم الأمراض، لم تستطع أن تتجاهل أن الأعضاء الموضوعة في جارات فورمالين محكمة الإغلاق دون رائحة، كانت لبشر سعوا يوما ما على الأرض،و لم تتحقق توقعات الآخرين بزوال المشكلة حين ستتعامل من السنة الرابعة مع بشر أحياء مرضى، لأنها اكتشفت في أول دروس الباطنة،أن الأمر أسوأ من المشرحة التي بها أعضاء لموتى لا تعرفهم، فقد مات أحمد والى الذي كانوا يفحصونه بالأمس وكان متمسكا بأمل النجاة. لم يكن ذلك أكثر ما يؤرقها، إنما الطريقة التي مرت بها وفاته، فقد سار العمل ببساطة بين الأطباء والممرضات وعمال المستشفي، كأن شيئا لم يحدث حتى أنهم بنفس البساطة جاءوا بمريض آخر ليرقد على نفس السرير الذي رقد عليه بالأمس شاب كان لا يدرى انه يندفع بشدة وقسوة نحو النهاية.

استحسنَتْ ما رأته من النسوة وهن ينكفئن ويقمن متعثرات خلف الجنازة ويصرخن في لوعة الفقد الحقيقية التلقائية، كأنما يشعرن بمذاق الموت الفعلي، حتى أنها لم تكن في حاجة لمن يدلها أن شخصا هنا قد مات. كانت تتكلم بسلاسة بينما تحدق في السقف كأنما لا تشعر بوجودي، انساب الكلام مؤلما كنزيف، فضفضة أو عتاب أو نجوى، لم أعرف، توقف الكلام فلم أتبين إن كانت قد استراحت أم أفرغت دمها، لكنني أحسست أن قرارها نهائي ورسالة أمها المقتضبة لي لم تكن غير محاولة أخيرة ويائسة لإثنائها عنه.

(٧)

قالت جدتي بُغْدادْ في حسرة:

ـ "على فين يا عيا.. قال ما تسألوش.. مطرح ما أحط هبان"

أدار أبى الراقد على حصيرة في الدهليز وجهه للحائط وبكى . برزت عظام وجهه وغارت العينان، بدا مقام سيدي عبد الله أكثر وضوحا للجالسين في الدهليز، قلّتْ أحاديثهم وحرصوا على لبس الأسود والقاتم، كثر الهمس والتطلع لجدران الدار و مصمصة الشفاه. لم أكن في حاجة لتريني أمي الأواني الفارغة حتى أعلم أنه من المحتم وربما من الآن أن أطلع القرافة وحدي.

لا أعرف لماذا ارتعدت كأنني أدخلها لأول مرة. بدت صور الناس غائمة والقبور متراصة والشوارع مزدحمة بالخلق والفقهاء والعيال الذين يمدون أيديهم طالبين الرَحْمَة والحسنة نورا لأرواح الموتى. أرامل وذوو عاهات يتتبعون بانكسار أهل الموتى من سيدات بيض بشعور سوداء منسقة في زي أسود وأفندية، حتى إذا استقروا أمام القبر وأجهشوا بالبكاء، توسلوا إليهم بأدعية تلقائية وفطرية أن يرحم الله أمواتهم ويدخلهم الجنة، فتفتح الحقائب وتوزع القروش. فقراء ويتامى يرفلون في ثيابهم القديمة، يوزعون خوص النخيل وأفرع العشب

الأخضر أعلى القبور، يرشون أصص الصبار بكيزان الماء من حلل صغيرة ودلاء ثم ينتظرون في رجاء خروج لقيمات الفينو من الأسبتة. كنت صغيرا بالفعل لكنني أحفظ سبعة وعشرين جزءا ولم يخطر ببالى أننى سأشحت كالعيال الآخرين، خيل إلى أنني سأنضم إلى صفوف المقرئين والفقهاء ذوى الهدوم النظيفة كما كان سيدنا يأخذنا . تحوط الفقهاء هالة من المهابة لأنهم حفظة كتاب الله، لا يتعرضون للإهانة التي يتعرض لها باقي رواد الترب. يعتبرون أنفسهم أهل هذه المهنة الأصليين، يعرفون أصول الدفن وطقوس الغسل والموت، يحفظون ما يتلى على الموتى لحظة الموت وعند التلقين وفي الخميس الأصغر والأكبر والأربعين، يعلمون من أسرار القبور وأهوالها الكثير مما ليسوا في حل من ذكره. يحتفظون لأنفسهم بما يرونه في القبور من نيران وحيات وثعابين وأحشاء مبقورة وأجساد كما هي لم تتحلل كأنها دفنت الآن رغم مرور السنين. لا يسمحون بفتح الترب على ميت قبل الأربعين ويدلون بآرائهم في الترب البديلة لأن القبر إذا فتح لا يكتفي إلا بثلاثة من أهل الميت غالبا ما سيلقون حتفهم خلال التسعة عشر يوما أو الخمسة وتسعين يوما التالية لوفاة الميت الأول بعدها يغلق القبر ربما لعشرات السنين دون أن يموت أحد، تلك خبرتهم ومشاهداتهم التي يحترمها الناس، فالقبر كالبطن إذا جاع لا بد أن يأكل وإذا أكل فلابد أن يشبع وإذا شبع صام مدة طويلة، هم التُرَبِيّةُ الحقيقيون وما سواهم شحاذون ودخلاء ومتسولون ومساكين يسترزقون من سقى الصبار ورش القبور وتجوز عليهم الصدقة .

دخلت المقابر وحدى لأول مرة، ليس بصحبة سيدنا فاعترانى الخجل والإحساس بالمهانة، كنت أعلم أننى انضممت لفئة ذليلة ومهانة، أشعر بوجهى باردا وشاحبا، لا يقوى لسانى على النطق، أتحاشى النظر نحو المارة، لماذا لا ينشق الطريق ويبتلعنا في ذهابنا وإيابنا ؟ نتسلل أحدنا خلف الآخر، نتحاشى نظرات المارة فنحول وجوهنا تجاه الأراضي الزراعية، نداري أكياس القماش الممتلئة بالقرص والخبز، نضعها مرة أسفل الجلباب وندس أيدينا من السيالة المفتوحة لتمسك بعنق الكيس، فتبرز الأكياس من تحت الجلابيب ملفتة للنظر ربما أكثر من ذي قبل. طابور من عيون خجلي ومنكسرة يتوارى على الطريق كأنما فعل فعلا شاذا. إحساس بمهانة ومذاق أليم، لا يحسه الفقهاء الرسميون الذين تنتظرهم زوجاتهم أو عيال كتاتيبهم فيحملون الخبز في قفف ومشنات.

رجوت سيدة جالسة ورجلا واقفا أمام قبر أن أقرأ سورة، أشار الرجل نحو باب التربة وأومأ برأسه،جلست وبدأت التلاوة : بسم الله الرحمن الرحيم . "يا أيها المدثر. قم فأنذر . وربك فكبر. وثيابك فطهر.و الرجز فاهجر. ولا تمنن تستكثر. ولربك فاصبر.فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير. ذرنى ومن خلقت وحيدا. وجعلت له مالا ممدودا". توارى الخجل، بدا صوتي جميلا ومؤثرا، كأنما أسمع في الكتاب، كان الرجل يتابعني بهزات رأسه. زال التوتر وبدا اهتزاز جزعي للأمام والخلف طبيعيا وسريعا ومتناغما

مع قصر الآيات حتى جلس بجواري الشيخ عبْد الوَهابْ غُصْن. انتظم بمجرد جلوسه معي في التلاوة، تآلف صوته الغليظ الهادئ مع صوتي الرفيع الحاد، فبدت التلاوة شـجية ومـؤثرة، انتبه أهل الميت والمقرءون الآخرون مطوا أعناقهم نحونا في دهشة. "وبنين شهودا. ومهدت له تمهيدا. ثم يطمع أن أزيد. كلا"، انقطع عن التلاوة،متعللا بأخذ نفسه. بلع ريقه متيحا لنفسه أن يرمقني بغل كأنه يمتحنني، مستغلا انتباه الناس ليلحظوا الفارق في التلاوة. أكملت وحدي: "كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا.إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قـدر." فرك يده وأخذ نفسا عميقا ثم دخل في الجاثية، قطع بانتقاله المفاجئ دون مبرر،استرسالي في التلاوة، لم تمر سوى لحظة حتى انضممت إليه متسقا في القراءة. آيتان ثم دخل في (هل أتى) ثم القيامة ثم انتقل بشكل خاطف للتغابن مستغلا قيادته في التلاوة وارتباكي للحظـات حتـى انتظمت معه في السياق، لكنه جحظ بعينيه وازداد وجهه سوادا وتوقف عن الـتلاوة، دفعنـي فسقطت على جنبى. "قوم يابنى.. ما تلخبطش في كلام ربنا" ونظر إلى الرجل والمرأة بلوم، قبل أن يستأنف القراءة ممصمصا شفتيه وفرد كفيه في تعجب: "ده قرآن يا ناس.. مش أي واحـد يقراه". عدلت نفسي وعدت للقراءة فدفعنى بعيدا لكننى لم أسقط: "قوم يا بنى.. وهم هيـدولك حسنتك.. قوم.. قوم بقول لك"

انهالت دموعي لإهانته المفاجئة، قلت وأنا أبكي: "ما تزقنيش يا با عبد الوهاب.. أنا حافظ"

بدا أسود الوجه كعبد هائج وكنت مرعوبا أتقى بيدي ضربه المفاجئ،إذ لا يرد أحـد علـى سيدنا عبْد الوَهابْ غُصْن مطلقا،يتقى الكل شره، يسمعون شتائمهم بآذانهم دون تعليق. كـان ينبغي عليّ الانسحاب منذ البداية والكف عن التلاوة بمجرد جلوسه بجانبي، أو أشعر بغدره ـ هو الذي لا يحب أن يقرأ بجانبه أحد ـ منذ تعمد في جلوسه أن يتقدمني واضعا فخذه الأيسر على رجلي اليمنى، يرشح عرقه من تحت إبطه كزيت محترق، ثقيلا وكريها، لكنني أرجعـت زنقته لي لضيق المساحة بشجرة السيسبان على حدود القبر.

تنتهي المشاحنات بين سيدنا الشيخ عبد وأي شخص لصالحه،لقسوته وشراسـته ولـسانه الحاد كسكين مسنون، يقطع به خصمه الواطى أبو ذيل نجس بتاع النسوان الذي لا يـشم ولا يحس وإن كان يشم فعلا فليشم رائحة نفسه ويلم أخواته العاهرات من دور فلان وفلان، فـإن حاول الخصم حتى الرد على سيدنا فإن التصعيد لا يكون في صالحه حيث يشمر سيدنا كميـه وينطلق لسانه ككرباج ناهشا في الأب الحرامي ناقل الحدود وشاهد الزور. يشتم سيدنا الشيخ عبد خصمه بالأدلة والأسانيد، كأنه يقرأ من كتاب مفتوح، مترقصا كالغوازي رافعـا صـوته وضاغطا على الكلام المؤلم والجارح. يهدئه الناس فيزداد هياجا،و قبل أن يبعد الناس الخـصم تجنبا للمزيد من القذف والسب الذي يطول الأصول والأنساب والأعراض، يقفـز سـيدنا فـي رشاقة ويتف في وجه خصمه أو يضربه بالكف على وجهه ناهيا المعركة وراضيا بالنتيجة:

ـ "وديني وما أعبد مانا عاتقك يا بن الكلب يا لوطى"

ثم يعدل ثيابه مستجيبا في النهاية لتهدئة الناس له، بينما يصحب آخرون الخصم مهزوما ومندهشا من كل هذه البذاءة،لائما نفسه لأنه لم ينسحب من البداية، لأن مجرد الرد على سيدنا الشيخ عبد أو الوقوف أمامه كفيل بإطالة أمد المعركة وزيادة لهيبها فيسمع من سيدنا ما يكره، إذ أحيانا ما يكون سبب المشادة تافها كاصطدامه بكتف سيدنا دون قصد أو رذاذ رشة ماء أمام دار لحق عقب سيدنا، وغالبا ما تكون المشادة دون سبب.

لا يكتفي سيدنا عبد الوهاب غصن بذلك، فيتربص بخصومه فترات طويلة، يؤذيهم بلسانه بينما هو يشتم عيال كتابه، أو يصحح لهم بصوت عال. مرّ الهادي عُلْوَان مع حكمت بنت أخته من أمامه فقال:

"الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك"

و تلا عند مرور أحمد الزئبق:

ــ "إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا"

ثم ضرب خالي عز الرجال بالعصا:

ــ "افهم بقى يا حمار"

و ضغط لغزاوى على مخارج الحروف وهو ينظر إلى أحمد الشموتى البخيل:

ــ "يوم يحمي عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون"

وسيدنا لا يصلى، لا يدخل المسجد إلا لقضاء حاجته. استعانوا به في افتتاح المسجد الكبير ذي المئذنة المبهجة كنخلة باسقة مقلمة الجريد، ليقرأ قرآن الجمعة قبل أن يشتروا الراديو، فجلس على دكة المقرئ وتلا سورة الفتح بأكثر من قراءة . كان صوته رخيما في الميكرفون الجديد فاكتظ المسجد بالمصلين، وحين أخرج ساعته وحان موعد الأذان صدّق وقرأ الفاتحة ثم خرج. غمزه إسماعيل فج النور خادم المسجد:

ــ "مش هتصلى واللا إيه يا شيخ عبد"

ــ "صلّوا انتم.. أنا عملت اللي عليّه.. قريت لكم القرآن"

ضحك إسماعيل والتفت الناس لضحكه، فاستدار الشيخ عبد قبل خروجه من الباب وشبشبه في يده:

ــ "انت بالذات تنكتم يا غبى ..فاكر حفظت الأدان في أد إيه؟"

انكتم إسماعيل وضج الناس بالضحك، إذ نجح بالكاد في مسابقة الأوقاف بعد سقوطه ثلاث مرات في تلاوة الأذان، حتى حفظه في عام. التفت بعد أن وضع قدمه اليسرى في الشارع، أشار بإصبعه نحو الضاحكين:

ــ "شفت يا اسماعين يا فج الزفت.. بيضحكوا.. أولئك كالأنعام بل هم أضل، لو بيفهموا كانوا طردوك م الجامع، يا بن المجنون يا بو شخة"

كانت صورة فج النور قد تصدرت أهرام ثلاثة وأربعين حين ادعى الألوهية، وأوجب السجود له وأسقط فريضة الحج وأجاز إقامتها في داره وقصر الصلاة المفروضة في كل ميقات على ركعتين وأهمل فريضة الوضوء والسنن والنوافل وشرب الخمر وقال إنما البيع مثل الربا، فأودع مصحة الخانكة ليموت فيها بعد شهر.

كانت كف سيدنا عبْد الوَهابْ غُصْن في طريقها إلى وجهي وكنت أبكي بالفعل حين أشار الرجل الواقف أمام القبر في هدوء وحسم:

ـ "خلليه يقرا معاك.. أنا عايزه"

تراجع سيدنا وعدت أقرأ بجانبه، حتى انتهينا، أخذ معلومة وقام أسود الوجه كالغراب النوحى فيما أشار الرجل لي بالاستمرار في التلاوة. وحدي، قرأت يس والجمعة والإنسان والقيامة، أومأ الرجل برأسه فدخلت في نوح والمزمل. كان صوتي جميلا وأنا أمثل القراءة، أشير بإصبعي إلى فوهة القبر لأعنى الموتى بداخله حين أقرأ: "وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا. متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا." أجزل الرجل في العطاء واكتفي بي في التلاوة . كان موجها للغة العربية، وسواء حضر أو لم يحضر، اعتدت القراءة أمام هذا القبر.

انتشرت سمعتي في المقابر، لم يعد أحد يضايقني، وحرص الشيخ عبْد الوَهابْ غُصْن أن يصطحبني معه، يتكلم بود خاصة بعد مرض أبى الطويل والأخير. في وسط سورة الطلاق، قطع تلاوته متسائلا:

ـ " ولو انه مش أوانه.. عاوز اعرف بس رأى والدتك.. والشيخ عبد أولى من أي حد"

ـ "في إيه يا با عبد؟"

ـ "إنت ما بقيتش صغير.. في الجواز على سنة الله ورسوله"

كيف وقف أبى الراقد فجأة على حصيرة في الدهليز صحيحا وقويا؟ وجذبني، فقمت دون تلاوة والشيخ عبد ينادى:

ـ "خد يا بنى تعالى.. إيه اللي جرى؟"

(٨)

بصقت مريم في وجهه فجأة. لم تقل إنه لص، أخذ لتوه شيئا ليس من حقه. تراجعت ــ لا أكثر ــ عن احتضان أختها الرضيعة لأم وبصقت، بينما هو كلص انكشف أمره، داهمته المفاجأة فلم يكن بوسعه، وهو يعيد طفلته إلى كتفه، سوى إخراج المنديل القماش من جيب جاكيتته الصيفي ومسح البصقة عن وجهه المعروق الشاحب. بصقة لم ينبس بعدها طرف بكلمة واحدة. من صعّد الموقف لذروته هكذا لينقلب موقف ــ على غير توقع ــ كان للصفح أقرب منه إلى قطيعة حقيقية؟.

أحست حياله بعدم الارتياح إذ بدت رغبته الخفية والملحة في الاستحواذ على الأم، وقت أن كانت كل شيء في حياتها، تناقشها في ألوان فساتينها وتسريحة شعرها وتعرف كل كبيرة وصغيرة عنها، تعلم حتى ماتفكر فيه، وما يجول بخاطرها ببصة واحدة في عيونها، لا تطيق بعدها، حتى أنها كانت تفتعل المواقف لتزورها في المدرسة. رفضت مريم أن تمكث مع أبيها بسوريا لأنها كانت هنا تبكى في خطاب ترسله لها كل يوم، تستعطفها ألا تنساق خلف حيل الأب الذى يتركها تمرح كى تختار البقاء معه، تأخذ عليها العهود ألا تتمادى في الزيارة كى لا تدفعها للجنون أو الانتحار، تضع يدها الصغيرة على المصحف وتقول لها:

ــ قولى والمصحف هارجع تانى لماما .. وحياتك لازم أرجع ..."

كانت تأخذها معها للعمل، فتظل تتنقل خلفها من حجرة لأخرى، ملهوفة كأنها ستفقدها، تعمدت أن تتركها معه لبعض الوقت، يتودد إليها فتتركه وتبحث عنها . بدت محتارة وهى تختلق المناسبة لتقول أن عمها شرف يسأل عنها كثيرا، يعتبرها مثل ابنته،أعفتها مريم من حيرتها وأكملت في استنكار:

ــ "ويريد أن يتزوجك!"

هزت رأسها وحاولت جذبها في حضنها، أ هكذا تكون البداية؟ رأت أن تتزوجه حتى لا يتكلم الناس ولاحتياجات أخرى لن تدركها مريم في سنها الصغير .اشترطت عليه أن يرعاهما معا وأن يقيم معهما في الشقة، فلماذا تبدلت الأمور؟ طلب من الأم الانتقال لشقته، فرفضت مريم. اعتذرت لمريم بأنها لا يمكن أن تخرب بيتها بيدها، فهو في النهاية زوجها ويجب أن تطيعه، وقد كبرت مريم ومع ذلك تعهدت بأن تمر عليها كل يوم. حدث ذلك بالفعل في البداية وما لبثت الزيارة أن أصبحت يوما من أوله في الأسبوع، ثم كل أسبوعين، مشاغل واعتذارات متكررة، وزيارات سريعة على الباب، ثم اتصالات تليفونية للاطمئنان.

شحت خطابات الأب، اقتصرت على التحويلات والمصاريف، كانت تتوق بالفعل إلى سطر واحد بخط يده، أو دعوة لزيارته، تراودها الهواجس أنه مات ولم يشعر به أحد في حجرته المعزولة في نهاية داره بوادي العيون، تنتابها الأحلام كأنها يقظى، فترتدى معطفها لبرودة

الجو وتركض فتطفو المياه من عيونها الكثيرة فتغرق السفوح. يزدهر البرتقال والزيتون والعنب والرمان ويكون الطريق وسط السفوح وعرا لدارهم الكبيرة من طابق واحد، تطل من جوانبها الثلاثة على ممرات خصوصية بطول أربعين مترا وعرض أربعة، حجرات تطل على هذا الممشى الهادئ المورق بعناقيد العنب المدلاة ككهرمان بينما تراه صامتا بطول هذا الممشى حتى ينتهي لحجرته الخاصة، ببابها المفتوح دائما في الممر وبابها الصغير الآخر يفتح من داخل الدار، بها مكتبة وسجادة وموقد وأدوات مطبخ وحق للبن المصحون والمحوج بالقرنفل وصفائح معبأة بالتبغ المخلوط بالأعشاب، بخور وعطور وتوابل، أكواب شاي وقهوة مقعرة من الوسط وغريبة، خبز وجبن معلق في أكياس بالحائط، شيشة وفحم وعلب من حلوى المشبك، حتى دلو الماء يغسل فيه الأكواب والأطباق وسرير غير مرتب وعصافير وراديو للأخبار والأغاني والقرآن وجرائد قديمة . كانت صومعة، وحدة وهدوء قاتل وصفاء وممشى بطول أربعين مترا، لم يكن يدخل الدار لأيام ولم تكن الأم ترى ضرورة لهذه العزلة ووادي العيون نفسها قرية معزولة وقاتلة فطلبت الطلاق حين اشتعلت النار في تميم الصغير فسمع الصراخ من بالخارج ولم يسمعه الأب في حجرته، امتلأت الدار عن آخرها بالبشر ولم يشعر الأب،صرخت:

ـ "رجعنى لمصر حالا"

رفضت أن تقيم في مصياف أو طرطوس، ورفضت حماة . أخذت مريم معها فلم يعترض، كان هادئا ومسالما والدموع تترقرق في عينيه، وهو يودعهم ويحمل لهم الحقائب حتى المطار، أدركت مريم أنه لم يكن أبا سيئا، فقد تكفل بمصاريفها وأمها في القاهرة، ظل يعرض عليها الحضور لسوريا لكنها كانت ترفض مجرد الرد عليه، بينما الخطاب الوحيد الذي فكرت أن ترسله وفتحه منبهرا كانت تطلب فيه الطلاق، بكى ولم يمانع . شعرت مريم في زياراتها القليلة أنه لم يكن سيئا كما فهمت، حيث يبدو سعيدا بعزلته، ويسألها بود:

ـ "ماما عاملة إيه..؟ أظن عجزت زى مانا عجزت؟"

لم يوغر صدرها نحو أمها أو يوعز إليها بالبقاء معه كما كانت تخشى، وإن شعرت بعذابه وقلقه ليلة السفر حين استدار ومسح دموعه التي انهمرت في المطار ثم ظل محتفظا بها في حضنه وهو يتمتم :

" "قلبي بيتعصر يا مريم.. بيتخلع يا بنتي"

انقطعت رسائله أو قلت فلم تبق سوى الهواجس، هل مات ولم يشعر به أحد في عزلته، أو أنه مستسلم لوحدته في حجرته المعزولة في نهاية الممشى ؟ فيما تعمد شرف أن يبدى في كل تصرفاته كراهية لها، استحوذ على الأم فابتعدت تلقائيا عن مريم . تركت أمر تدبير معيشتها لها وحدها، مجاملة بأنها نضجت حتى أنها لم تعد تخشى عليها شيئا . مثل أيام خالية عبرت عن رغبتها في دراسة الفنون الجميلة فقالت:

ـ "فنون جميلة إيه دى يا مريم.. لأ.. لأ.. لأ يا حبيبتى.. خليها طب.. أنا ماما وبانصحك"

تراجعت إرضاء لأجمل ماما وحين سقطت في المشرحة، اكتفت بقولها في التليفون أنه أمر عادى يحدث لكل طلبة الطب وسرعان ما يتأقلمون عليه.

حين قابلتهما مريم في الشارع، كانت الصغيرة على كتفه هو، أختها لأم هي التي على كتفه الآن. من أين جاء كل هذا الفرح المباغت حين همت مريم لالتقاطها وأخذها في حضنها؟ كان وجه البنت جميلا ومضيئا يدفع لغفران أقسى الذنوب،فردت ذراعيها بكامل امتدادهما وسألت عن اسم الكائن الجميل المفرح فقال: مريم! . انطفأت جذوة الفرح ولم تشعر سوى بذراعيها المفرودين يرتدان إليها وهى تبصق في وجهه.أخذته المفاجأة فلم يبد رد فعل، أخرج منديله القماش ومسح وجهه.

سنوات أربع وهى تصارع حتى عدنا من نوى فأخذت قرارها النهائي بالتوقف عن الدراسة، قالت إنها سعيدة وقاطعتني كأنها في حلم: هل قلت أن جدتك بُغْدادْ كانت سمراء وطويلة ومستطيلة الوجه حادة التقاطيع؟

ـ "لم أقل.. لكنها كانت كذلك وماتت"

قامت إلى الحمام وغسلت وجهها وعادت مبتسمة كأنها مريم أخرى غير التي كانت تبكى منذ قليل واعتذرت عما سببته لي من كآبة. اختفت لوحة الطفل الباكي وظهر طفل أصغر يتبول في غابة أشجار كثيفة، التقطت الصورة من الخلف فبانت مؤخرة الطفل بلا سروال، كان تيار الماء مندفعا للأمام بينما الطفل منشغلا في التبول، لا يعبأ بالآخرين وكان "البكاء بين يدي زرقاء اليمامة" و"العهد الآتي" على الكرسي فيما كان ديوان "أقوال جديدة عن حرب البسوس" على زجاج المكتب وقد أطلت صورة لمعصرة زيتون من تحت زجاج المكتب. سألتها فأشارت نحو جدها الحرايرى في مقدمة الصورة، تكلمت بحماس وطلاقة، تشرح كأنما يتزاحم الزبائن بأجولة الزيتون، ليضعونه على السيور فيغسل في أحواض ويجفف، ثم يذهب للكسارات فتهرس الحب والنوى ويذهب العجين إلى المكبس، فيصب الزيت من جهة، وتؤخذ القوالب لاستخراج زيوت أقل نظافة،لتخرج القوالب النهائية جافة للحرق والتدفئة. تكلمت كأنها لم تقل ذلك من قبل ثم اكتشفت أنني أعرفه ففتحت "أقوال جديدة عن حرب البسوس" ومالت برأسها للخلف.

(٩)

تعجل عبْد الوَهابْ غُصْن النهاية وفاجأني بسؤاله عن أمي فتركت له المقابر. فاجأت الجميع بعدم العودة للترب ولو متنا من الجوع. اغرورقت عينا أبى وضمني إليه معتذرا عن مرضه الذي طال، ثم مات في اليوم التالي. كرهت عبْد الوَهابْ غُصْن وكنت أريد أن أخرجه من المندرة فلا يشهد الغسل، أو يتأمل الدار جيدا، كان يتعجل النهاية بالفعل وظننته سعيدا بموت أبى، إذ كان يداوم على الزيارة أثناء مرضه، حتى في لحظات الغسل كان يبدو منتشيا حريصا ألا تصوت النسوة مشيرا بعكازه للمعددة ولجدتى قِشْطَة متوعدا من تصوت أو تلطم أو تشق الهدوم لحظة خروج النعش.

انقطع الواجب الذى كان يؤديه الناس تجاهنا بمرور الخميس الكبير: البيض المسلوق وقطع الجبن وحلل الأرز من عمتي فردوس وخالتي ثبات واحترام، ديكان حمر وبربرة من هانم فودة ومكة سيد احمد وعتيقة صاحية من حسيبة يونس. خفّتْ حدة البكاء إذ بدأ الجرح في الالتئام، وسرى الكلام عاديا. ارتاح أبى في رقدته الأبدية واستعدّتْ أمي للحياة. كنا سنتعشى حين قالت: ماذا سنفعل؟ وضعت البيضة في الصحن وبصت لى. اغرورقت عيناي بالدموع، كنت أعلم أنها ستفتح الموضوع مرة أخرى. كانت ما تزال تحدق في بينما أخواتي يأكلن في صمت حين طرق الباب سيدنا وبعض المشايخ والفقهاء من أصدقاء أبى. أحسست أن خالي عطية وأمي قد اتفقا على هذه الجلسة. أصر المشايخ أن أجلس في موضع أبى على الحصيرة في مواجهتهم، كان الكلام قد تردد في أوقات سابقة بأن أترك المدرسة لأتحمل أعباء الأسرة، طرح الكلام حتى في حياة أبى أثناء مرضه، رأيت أن الأمر سيبدو مؤلما لو سار على النحو المرسوم.

قلت إنني لا أريد أن أترك المدرسة ولا أريد الذهاب للمقابر وبكيت فتدخل سيدنا الشيخ مُرْسِي وزر عينه السليمة نحوي وهو يتثاءب معلنا رأيه النهائى، أن أحمل رواتب أبى وأذهب إلى المدرسة، ربت كتفي قائلا:

ـ " وبلاش يا سيدى تروح الترب خالص...مبسوط؟"

استحسن الجميع رأى سيدنا وأضاف عبْد الوَهابْ غُصْن مازحا:

ـ "بتنكسف يا خايب.. ما لهم التربية؟.. بص وشوف.. بطاقتي مكتوب فيها إيه!"

و أخرج بطاقته العائلية، كانت عيونه في الصورة كزربة العتيقة، مبقللة ومتورمة توشك أن تنغلق من الهالة الغامقة المنتفخة حولها . أزاح حرف الصورة حتى أقرأ كلمة تُرَبى وزغدنى في صدري وهو يضحك:

ـ "دى الحكومة يا خايب.. اللي هي الحكومة معترفة بينا"

هزت رأسي مضطرا للموافقة فقال في فرح:

ـ "ذلك ما كنا نبغ"

أضاف سيدنا الشيخ مُرْسِى في نغمة مجاملة قبل أن ينصرفوا:

ـ "وبكرة يا سيدى مولد سيدنا النبى.. ويكون في علمك.. إنت معانا"

وشدد سيدنا على ما اتفقنا عليه وأشار إلى أعلى في تأكيد:

ـ "الله على ما نقول وكيل"

كنت أعلم أنني سأكون معهم بعد العشاء في مندرة على الناظر الكبيرة والمفروشة بالحصير لنقرأ القرآن برواية ورش . عادة سنوية في مولد النبي وعاشوراء والسنة الهجرية، يبدأ سيدنا بتلاوة الجزء الأول، يليه عبْد الوَهابْ غُصْن ثم إبراهيم سليم ثم طه مهدى ثم اللوزى. في الآية الأخيرة من الجزء الخامس أشار سيدنا في حسم وانتباه، قبل أن يبدأ أحدهم التلاوة مرة أخرى:

ـ "كَمّلْ يا شيخ يونس.. الله يفتح عليك"

ـ "لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعا عليما. إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا"

لورش نكهة خاصة وإيقاع يعين على الفهم والتدبر لمجمل الآيات، يتيح المد فيه الاسترجاع دون مشقة ،إذ نادرا ما يخرج المرء في ورش عن السياق. كنت أتلو وكان الصوت جميلا وحادا، ألمح المشايخ يحدقون متحفزين للرد أو التصحيح حتى انسجمت آذانهم وانتظم اهتزازهم وخشوعهم، كنت أقربهم شبها بسيدنا مستفيدا بما تعلمته من أحكام التلاوة رغم صغر سني، قرءوا ثم جاء دوري، قرأت الجزء الثاني عشر وكنت أشعر بسعادة وأنا أقرأ سورة يونس، صرت أُفَضلُ رواية ورش في التلاوة أمام المقابر وفي صلاة الجهر وحفص في المناسبات التي تتطلب السرعة لإنهاء ختم المصحف، قرأ كل منا خمسة أجزاء فجاء الجزء الأخير من نصيبي. تطوع سيدنا بدعاء ختم القرآن وأخرج ساعة جيبه وحدق فيها بعينه السليمة:

ـ "اللهم صلى ع النبي.. خمس ساعات وربع .. إيه الحلاوة دى؟"

دخل غرفة الطعام فدخلنا خلفه، خمس ساعات من التلاوة المستمرة أشعرتنا بالجوع فعلا،أكلنا ولف كل منهم نصيبين لعياله ولف سيدنا نصيبا آخر لي وهمس في أذني:

ـ "ده لوالدتك وإخوانك"

وأعطى كل منا نصيبه من النقود وأرانا نصيبه قبل أن يدخله في جيب الصديرى متجنبا الشبهات ومشيرا بالذات لعبْد الوَهابْ غُصْن:

ـ " وأنا زيى زيكم يا شيخ عبد"

تعجل سيدنا الخروج متوكئا في الظلام الدامس على كتفي، تركنى مسرعا كعادته لجرن القمح كأنه يجدف، رفع ذيل جلبابه ونظره للخلف وهو يجلس منزلا في الوقت نفسه

سرواله،بينما كان ذيل جلبابه مفرودا خلفه تماما، كان تيار البول مندفعا يحفر في الأرض حتى خفت، عاد بطيئا ومستريحا للاتكاء على كتفي وسألني:

ـ "يس فيها كام آية يا يونس؟"

ـ "٨٣ آية"

ـ "والمنافقون؟"

ـ "حداشر آية"

ـ "طيب وهود؟"

ـ "مية ثلاثة وعشرين تقريبا"

ـ "اتعدل يا ولد!"

ـ "مية ثلاثة وعشرين يا سيدنا"

ـ "قل لى آخر الروم"

ـ "فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون"

كنت أشعر أنه يمتحنني أمامهم وهم يخوضون في الظلام إلى بيوتهم ليثبت أن نصيبي الذي أخذته مثلهم كان عن جدارة، أحسست أنه يفاخرهم بأنه ليس في كتاتيبهم من يحفظ القرآن مثلى وأنه حين دعاني ليكونوا ستة كان محقا.

أخرجت أشياء أبى من دولاب بحائط المندرة. أوراق وحجج لدارنا ونسب لسيدي بكتوت وآخر لسيدي عبد الله ينتهيان لآل البيت،كتب عليهما (نسب كأن عليه من شمس الضحى نورا ومن فلق الصباح عمود) كتب قديمة ومخطوطات للشيخ على الهلباوى ووثيقة زواج شرعي من أمي رَحْمَة وعقود وإيصالات أمانة ومخطوطات بأسماء وتواريخ كل من مات في القرية من أول محرم ١٢٥٣هجرية ومغزل وشوكة نسيج وطواق لم تكتمل. طلّعْتُ بطاقته، كانت صورته ما تزال رقيقة والشال والعمة على رأسه ملفوفة بعناية وجلبابه الصوفي الغامق وشاربه المهذب فوق شفته في وقار. نظرت إلى خانة المهنة فوجدتها مقرئ . لم أجد كلمة تربى أو فقي أو محفظ. عدّدَتْ أمي الدور التي كان أبى يقرأ فيها وذكرت أسماء الميتين فيها قديما وحديثا ولم يكن بإمكاني تكسير كلام سيدنا أو الخروج على ما اجتمع عليه المجلس . سأقرأ رواتب أبى عبد الفتاح يونس، هو الإرث يؤول الآن لي فلا يشعر أحد أن أبى مات. غسلت أمي رَحْمَة ثوبا وأيقظتني في الصباح. قبلتني ثم دفعتني نحو الباب:

ـ "ما تخافش.. تخبّط على الباب كده.. هيقولوا لك مين؟ تقول أنا ابن المرحوم عبد الفتاح يونس.. جاى عشان أقرأ.. وتقوم داخل كدهه"

من أين آتى بزهو المرحوم ووقاره وهيبته حين يطرق الباب بعصاه وهو يتمتم بصوت مسموع بأدعية وأذكار الصباح منتظرا الصوت الأنثوي من الداخل:

ـ "مين اللي بيخبط؟؟"

ــ "الشيخ عبد الفتاح يونس"

ــ "إتفضل يا سيدنا.. خش يا شيخ عفّتاح"

تُستر الرؤوس بالطرح وتنسدل الهدوم على الأجساد وتوسع الأماكن وتفرش الحصيرة في ركن قريب من صدغ الباب:

ــ "يا رب يا ساتر ...صباح الخير يا أولاد. بسم الله الرحمن الرحيم.يس. والقــرآن الحكــيم .إنك لمن المرسلين.على صراط مستقيم.تنزيل العزيز الرحيم". تستمر التلاوة فيما يؤدى أهل الدار عملهم من وضع أكل للطيور أو حلب المواشي وتسخين خبــز الفطــور بينمــا آذانهــم موجهة نحو أبى، يبلغ انتباههم منتهاه حين يختم السورة واهبا ثواب ما قرأه لأمــوات أهــل الدار، الأحدث فالأقدم، منتهيا بأسماء موتى يمتون بقرابة لأهل الدار قد لا يعلمون هم عنهــا شيئا، وربما تطوع بتوضيح صلة القرابة فيزول الغموض ثم يختتم بتوزيع ما بقى من ثــواب القراءة لأمواتنا وأموات المسلمين جميعا.. الفاتحة، يتمتم أهل الدار جميعا بــصوت مــسموع فرحين بأنهم لم ينسوا موتاهم. يستأذن في الخروج بنفس الوقار، ماسحا فمه بمنديله المطوي بعناية إذا كح أو عطس بينما للبصاق والمخاط منديل آخر بجيبه الأيسر،فيما تتأرجح الــدموع في مآقي النسوة وهن يستحضرن أطياف موتاهم المنسيين بفضل أبى.

من أين آتى بهذه السطوة وهذا القبول – أنا ضئيل الجسم الملتف بشال أبى المنقط بأسمر – حين أطرق الأبواب طرقا ضعيفا وخجولا، منتظرا أن يجيب أحد، فينبهني أحد المارة:

ــ "خبّط قوى.. كده مش هيسمعوك"

أعيد الطرق فتخرج طفلة أو بنت وتنظر مستفهمة:

ــ "عايز إيه؟؟"

ــ "أنا ابن المرحوم عبد الفتاح يونس"

أرتجف من الخجل حين تخرج برغيف خبز أو قرش فأوضح:

ــ "لا.. لا.. أنا جاى أقرأ مكان أبى"

كانت النسوة يتأملننى وهن يوسعن المكان لي ويمصمصن شفاههن من الإشــفاق ويتحــاورن بصوت واضح وينظرن نحوي:

ــ "هو ده ابنه الكبير يا ضنايا على كوم اللحم"

لم يعد النسوة يغطين رءوسهن، ولم يعد باستطاعتي رفــع صــوتي بــالتلاوة أو إظهــار جمالياته، أبدأ التلاوة ثم أنتهي فلا يشعرن إلا بخروجى. فاجأنى الفقهاء وهم خــارجون مــن البيوت التي كنت سأطرقها . كان الشيخ عبْد الوَهابْ غُصْن أول من اعتدى من الفقهاء علــى رواتب أبى خارقا ما اتفقوا هم عليه. رأيته خارجا من بيت أبى غانم وكنــت علــى وشــك الدخول، قال إن أهل الدار طلبوه للتلاوة بالاسم وألحوا عليه ومسكنى من الشال وأراني لهم من الباب:

ـــ "هتعوزوا الواد ده يقرأ تانى؟"

ـــ "البركة فيك انت يا شيخ عبد"

فقال وهو ينتر شاله على كتفه:

ـــ "سمعت بودنك يا سيدي.. سلم لي ع الست والدتك"

كان اعتداؤهم على رواتب أبى منافيا للعرف السائد بأن تترك رواتب المتوفى لأحد أبنائه حين لا يتوفر مصدر كريم للدخل، وتقسم الرواتب على باقي الفقهاء إذا رفضها ورثة زميلهم المتوفى، أبلغت أمي فقالت أنها لن تعاتب قليلي الأصل، الذين لم يعملوا خاطرا لعظام التربة، فكبار القرية كانوا يعرفون أبى ويحترمونه لصوته الجميل ولأنه الوحيد الذي يعرف أسماء وتواريخ وأماكن دفن موتاهم، ولأنه لم يتقاض أجرا عن تلاوة أو دفن أو تلقين ميت، إنما كان يفعلها ابتغاء مرضاة الله وما يرسله الناس في مواسم الحصاد لا يأخذ منه إلا ما يكفينا والباقي يوزع بمعرفته على من يستحقونه، ولم يطلب سوى الستر عندما انفتحت له طاقة القدر وغمرت للحظة ساحة وقبة سيدي عبد الله بنور مبهر ، يحبه الجميع ويقصدونه للسؤال عما غمض عليهم في مسائل الفقه والميراث ورد اليمين مستعينا بما قرأه وحفظه من مخطوطات الشيخ على الهلباوى العلامة وصاحب العمود بالأزهر، الذي كانت دارنا ـــ قبل أكثر من مائة وخمسين سنة ـــ هي داره.

اعتدى الفقهاء على رواتب أبى، دون أن يعلموا أنهم يأكلون في بطونهم نارا، بينما اقتصروا على دعوتي إذا ما كانت هناك خاتمة أو نذر أو سبحة وعتاقة لميت، فلم تعد التلاوة مبهجة كما كانت. صرت أشعر بآلية في التلاوة، تغيب جماليات ورش عندما يشير سيدنا بيده اليمنى كأنه يغرف مسرعا، أو يلف سبابته في الفراغ وهو يقرأ فيزداد إيقاع التلاوة، يناولنا بصوته المرتفع أول الآية قبل أن ننهى التي قبلها فنلضم الآيات دون أن نلتقط أنفاسنا، كأحصنة تلهث لتطوى الطريق ثم يقفز فيتلو دعواته، يجف ريقنا من سرعة وكثرة التأمين على دعواته التي تنهمر كشلال الماء في فم ترعة الفلفلة، آمين الأخيرة يقولها معنا ويمطها، فنقرأ الفاتحة بصوت قرار كأحصنة متعبة تنهى السباق، ليندفع سيدنا للخارج كطير ملهوف، يتنحى جانبا وبقعي على حقويه ليندفع سيل الماء بين فخذيه متنهدا للألم الذي يضيع شيئا فشيئا أسفل البطن.

عانيت من الخجل لنظرات الناس الجارحة وبدا ما أفعله مشينا فامتنعت عن الرواتب، اصطدمت بأمي وماتت أختي أسماء من المرض والهزال، كنت أسمع نشيج أمي في جوف الليالي. ماتت أسماء فلم تعاتب الفقهاء وإنما جلست قبل مدخل المقابر بقليل تحت شجرة النبق ولفت رأسها بشال أسمر ووضعت رأسها في حجرها في صمت، لم تطلب شيئا من أحد، فيما أصبح وجودها علامة أساسية ومشهدا تعوده الناس، صاروا يضعون بنفوس راضية

معلوم أولاد عبد الفتاح يونس في حجرها أو في السبَت دون أن ترفع رأسها. فاتحتها حين دخلت الكلية وسقت عليها خالي عطية، إن كان الأوان قد حان لتترك جلسة النبقة فرفضت:

ـ "إن كنت ناسي انت بن مين؟.. بص في بطاقتك"

قبيل امتحان السنة النهائية، امتنعت من تلقاء نفسها فلم تخرج من الدار،و إن بقيت النبقة تعرف بنبقة رَحْمَة وظل الذين لا يجدونها عند النبقة يلحون في السؤال عن دارنا قبل الأخيرة في درب الخارجة ليتركوا لها المعلوم:

ـ "فين دار المرحوم عبد الفتاح يونس؟"

(١٠)

في درب الخارجة المعروف بشارع سيدي عبد الله كانت دارنا قبل الأخيرة تواجه قبة وساحة سيدي عبد الله وتفتح ـ في ميزة وحيدة وغريبة ـ من الخلف بباب صغير بسقاطة يفضي بالواحد وحده منحنيا لدرب سيدي بكتوت وقبل مقامه بقليل. تلك دارنا والتي عرفت بدار المرحوم عبد الفتاح يونس، بعدها فقط دار حسيبة يونس التي لا تنتمي لنا بقرابة سوى الجيرة الطيبة. يكاد المار في الدرب أن يلمس الأسطح بذراعه لو مدها . دور الدرب عتيقة وواطئة، أبوابها كابية تنزل لها بدرجتين أو ثلاث، فالمقامات الأربعة ومن بعدها الدروب القديمة أقيمت على ربوة عالية، الأمر الذي مكن أهل القرية أن يروا وبوضوح قبتي سيدي عبد الله وسيدي بكتوت أينما كانوا في الحقول أو في الشوارع أو على الأسطح، ومن ثم تلاوة الفاتحة لهما أولا ثم لسيدي مرزوق وسيدي مبارك في مسجديهما بعد ذلك. كان بابنا العتيق يفضي لدهليز طويل، مفروش بشريط نظيف من الحصير يغطى إحدى الدرجات الثلاث تحت عقب الباب فيما يظل الجزء الخالي من الفرش بجوار الحائط للنعال المخلوعة ولمن يدخل الدار، وكان الزير بغطائه الخشبي وكوز النحاس على مزيرة من حديد، في نهاية الدهليز قبل مطلع السلم يتلقى الهواء البارد من الدهليز البحري المواجه لساحة سيدي عبد الله الواسعة، فترشح قطرات الماء البارد من بطن الزير ومن أسفله.

في آخر حصيرة أبى المفروشة،عليها مسنده وأمامها المداسات مخلوعة، يفتح باب المندرة المطلة على الشارع بشباك بحري ذي ضلفتين علويتين تفتحان للداخل فترى قبة سيدي عبد الله وقمة أشجار الساحة، أما الضلفتان السفليتان فمغلقتان بشكل دائم لارتفاع الشارع وهبوط الدار حتى أصبح بإمكان الجالس في المندرة أن يرى قدمي السائر في الشارع. ثمة بالمندرة التي على الشارع ثلاث مصاطب للضيوف، فوق كل مصطبة دولاب بالحائط مغلق بقفل للأوراق والكتب والشاي وأقماع السكر وهدوم أبى النظيفة وشيلانه وعمته وحذائه الخاص

بمشاويره البعيدة وعصاه وعدة غزل ونسج الطواقي. على الأرض مشنات للخبز وقلل ممتلئـــة بالماء على صينية وبالحائط كوتان للمبتي الجاز نمرة خمسة وبالسقف عروق من خشب قديم وألواح حال لونها السماوي. في الدهليز الثاني سلم طيني تحته بيت صغير معـــتم للراحـــة، وكانون للطبيخ ثم ذلك الباب السحري الخلفي بالحائط والمؤدى بالكاد لنفر واحد يخرج منحنيا لدرب سيدي بكتوت وقبل مقامه بقليل.

من لم يصعد السلم أو يتجه لبيت الراحة، سيدخل قاعة الخبيـــز ببابهـــا الـــذى لا ينغلـــق، تعرشها جذوع أشجار قديمة وبوص مهبب، بالسقف كوة للإضاءة وتصريف دخان الفرن ذي الفتحتين الذي تنام عليه أمي وأختي أسماء وفاطمة، بينما ينام أبى في الدهليز على حـــصيره أو معي على مصطبة المندرة. ثمة على السطح صوامع لتخزين الذرة تقف على حافة الـــدار بكروشها المنتفخة كخفر نظاميين،و بنيات للحمام وأقفاص وعشش للطيور .

يروق لي الجلوس فوق السطح والتطلع لقريتنا القديمة التي تنام فـــي حـــضن المقامـــات الأربعة: سيدي بكتوت وسيدي عبد الله وسيدي مبارك وسيدي مرزوق، يحزمها داير الناحيـــة فتتسحب منه الدروب والحارات ملتوية كثعابين نحو مركـــز القريـــة وســـرتها، أطولهـــا درب الخضرية ثم درب حمدان ثم درب سيدي بكتوت وأكثرها التواء درب الخارجة ثـــم الشيـــشيني وأقصرها على الإطلاق درب الدعايسة، بينما تتجاهل جدتى بُغْدادْ درب عُلْوَان وتـــسميه درب النجاسة، كأنه ليس من قريتنا، لأن العَلاوْنَة بنوه في عصور لاحقة وابتدعوه من داير الناحية متجها ــ عكس كل دروب القرية ــ للخارج نحو الترعة والقنطرة كعبد مارق، مختلفا حتـــى في دوره عن كل دور قريتنا القديمة، كأنما تعمدوا منذ البداية أن يظلوا مختلفين عـــن بـــاقي القرية. بينما بقى مقام سيدي بكتوت وسيدي عبد الله بقبتيهما العالية وساحتيهما الواسعتين، ألحق بمقامي سيدي مرزوق وسيدي مبارك مسجدان عرفا باسمهما فانضم كل ضريح لمسجده لا يفصله إلا باب صغير. انتشرت الدور في عصور تالية خارج داير الناحية، لكنها لم تتجـــاوز الموانع الطبيعية: ترعة الفِلْفِلَة وجنابية نقباس والطريق الزراعي وجبانة المسلمين. حينمـــا رجع العائدون من الخارج،انتشرت عماراتهم وفيلاتهم خارج الموانع الطبيعية ووسط الغيطـــان حتى كادت تلاصق القرى المجاورة.

من فوق دارنا كنت أتطلع لسيدي بكتوت من الخلف وسيدي عبـــد الله مـــن الأمـــام ودار أُم حَوّاش الملحقة بساحة سيدي عبد الله، الذي ترتفع قبته فوق الضريح صـــفراء تبـــين منهـــا القوالب تحت الطلاء المقشر بينما شاهد القبة المصنوع من العاج بأربعة انتفاخـــات متدرجـــة الحجم تنتهي بهلال مدهون بالأخضر لا يفارقه الحمام. أمام المقام حوش كبير بـــه مـــصاطب للزائرين وساحة كبيرة بسور منخفض بلا باب وأشجار جميز عتيقة وحـــور ونبـــق ونخيـــل وطرمبة ماء منزوعة اليد أمامها حوض قديم . تنتاب الداخل سكينة ورهبة لنعومـــة التـــراب

ولونه الداكن كالكحل وهسيس الأشجار ذات الطيور الغريبة وتلك الرائحة العتيقة التي تميل إلى العطن والركود، والسكون الغريب كأنما المنطقة والدرب مقبرة قديمة وكبيرة.

تبدو القبة من الداخل أكثر عظمة وهيبة، شاهقة في أسفلها باب للضريح يفضي إلى مقصورة ذات أعمدة خشبية ضيقة تسمح بالكاد من بينها أن تمتد يد الإنسان للتبرك ولمس الضريح . أعلى باب المقام كوة بحجم طوق المنخل، أدخلتني منها سبع مرات جدتي بُغْدادْ لتتلقفني بالداخل جدتي قِشْطَة بينما أمي قبل السبوع تنام في الدار ترجو ألا أموت مثل أخوتي السابقين، استنفد الجميع وسائل العلاج فمات الأخوة ولم يبق سوى طاقة سيدي عبد الله، تذكرتها جدتي بُغْدادْ كأنها تعرفها لأول مرة، فتحت لهن الباب أُم حَوّاش ، فتطهرن وخلعن المداسات وصلين داخل المقصورة ثم أدخلنني من هذه الكوة سبع مرات، فانتعشت بالنسيم الداخل من الفتحات الأربع أعلى مربع حجرة الضريح،و بكيت وطلبت الرضاعة، استبشر الثلاثة وابتسمن في ضوء الشمعدانات الأربعة واللمبات نمرة خمسة بالكوى التي بالحائط ذات الضوء الشحيح المتراقص ورحن يتأملن في رهبة وخشوع كسوة الضريح الخضراء من السندس وقد كتب عليها بالأصفر: ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا والآخرة، لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم.و كتب في الأركان الأربعة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى.

كنت صغيرا عندما كنت ألعب وأتسامر مع خالي عِزْ الرّجَالْ وغَزّاوِى بن فاطمة في تلك الأمسيات الهادئة والخافتة في ساحة سيدي عبد الله، الممتلئة بنخيل لا يتساقط بلحه إلا في الليل، ليس بفعل الرياح وإنما كنا نعلم أن سيدي عبد الله هو الذي يسقطه كل ليلة حسب عدد الساهرين،يخرج من مقامه أو يأمر فيسقط النخيل بلحة إثر أخرى بيننا ناضجة وربما مفتوحة يسقط عنها القشر بفعل الارتطام، فيمد من عليه الدور يده في الظلام متحسسا حتى يعثر عليها فيضعها في فمه، لا نتزاحم ولا نتقاتل لأننا نعلم أن الكل سيأخذ نصيبه ولن تنفض جلستنا حتى تدب على الأرض البلحة الأخيرة فننفض جلابيبنا وننهض إلى دورنا. نحب الشيخ ونعلم أن نخله ليس للتسلق، حتى خالي عز، رفض تسلقه لأنه شاهق ولأنه خاف أن يسقط قتيلا ولأنه كان يعلم أولا وأخيرا أن نخل سيدي عبد الله ليس للتسلق ولا يجلب تمره بالطوب إنما يوزع هكذا كل ليلة، بلا تشاحن أو بغضاء . للشيخ مهابته، تخرج أُم حَوّاش بظهرها المحدودب إذا تجاوز حديثنا ما تراه لائقا، تسبنا وتأمرنا بالهدوء أو الرحيل. لم أدر حين انصرف الجميع وتركوني نائما في الساحة، إن كانت بلحتي قد سقطت أم لا، لكنني رفضت القيام عندما انتهت الجلسة فأيقظتني يد رقيقة، كان الوقت فجرا فيما كان القمر باديا في السماء والنخيل واقفا كأنه أعمدة مضيئة، والشيخ في عباءته الخضراء وعمامته البيضاء مشرقا ومهيبا يتساءل كأنه يتأكد:

ــ "يونس؟"

ـ "نعم"

ـ "حبيبي"

قلت نعم يا سيدي، فناولني بلحة ناضجة ووضعت كفي الصغيرة في راحته، رفعني لأعلى، رأيت فضاء فسيحا يشرف على حدائق وجنات وأنهار وطيور ملونة وفواكه وأطفال كاللؤلؤ ونسيم وموسيقى. نظرت تحتي فرأيت أهل قريتي فريقين يتصارعان، أشار بإصبعه:

ـ "فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة"

أراني طاقة أخرى غير التي أدخلتني جدتي بُغْدادْ منها، فقلت ما هذه فقال:

ـ "طاقة كشف الكذب"

من يدخل فيها رأسه كاذبا أو ظالما دون أن يعترف تضيق على رقبته فلا يستطيع الخروج، وسألني والقمر يضرب بنوره في وجهه وذقنه الطويلة مهيبة ينفذ الضوء من خلالها:

ـ "كم عدد أهل الكهف؟"

ـ "الله أعلم"

فدندن بصوت رخيم:

ـ " وإنى في أهل الرقيم لمفتكم فثامنهم كلب وعينى حجتى"

ـ "قل ربى أعلم بعدتهم"

فابتسم ماسحا وجهه بضوء القمر وحمد ربه وأشار إلى صدره:

ـ "ما يعلمهم إلا قليل"

وناولني ورقة مطوية بعناية ومكتوبة بحبر أحمر، بها نسبه الذي ينتهي إلى الإمام موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام الحسين بن الإمام على بن أبى طالب وابن السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله، كان النسب موثقا ومختوما بشهود من مكة المشرفة والمدينة المنورة ودار الرصاص،مبتدئا بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم : لعن الله الداخل فينا بغير نسب والخارج منا بغير سبب. قلت:

ـ "هل أنصرف يا سيدي؟"

ـ "ابق معي فإنها ستبرد وتهب ريح شديدة"

ـ "هي خطوات بسيطة وأصل دارنا"

ـ "إذن أخرج فأوصلك"

و في أول خطوة ارتعدت من البرودة فدثرني بعباءته وقال:

ـ "تعود لأنها ستمطر"

قلت إنها خطوات قليلة، سار معي خطوتين فأمطرت مطرا شديدا، ابتل النسب من يدي، فكرر في رجاء يشبه الأمر:

ـ "تبيت معي.. لو مشينا خطوة واحدة لأظلمت ثم أبرقت وأرعدت"

كانت قدمي قد امتدت لتأخذ خطوتها حين أظلمت السماء ثم أضاءها البرق الصاعق، صــرخت فرفعني بعباءته وأعادني للداخل. في ضحى اليوم التالي ذعرت أُم حَوّاش حين رأتني راقدا في المقصورة وفي يدي النسب ملفوفا ومبتلا والبلحة كما هي وصرخت:

ــ "دخلت هنا إزاى؟! بسم الله الرحمن الرحيم"

كانت قد أمضت ــ حين أخذت من يدي النسب وقالت شي الله يا سيدي عبــد الله ــ ســتا وعشرين سنة بعد رفضها إجراء عملية جراحية لاستئصال ورم خبيث انتشر برحمها، خوفا أن تغسلها زاد المال المغسلة فلا تراها عذراء بختم ربها فتلوك سيرتها أو تظن بهــا ســوءا، وظل الدكتور أحمد شفيق باشا من قصر العيني، يزورها كل عام تاركا سيارته الخضراء فــي داير الناحية أمام درب الخارجة، ليرى متى تموت أُم حَوّاش ويعرف معدل انتــشار المــرض حتى مات هو قبلها بثلاث سنوات، ولم يتح لزاد المال التأكد من عذريتها لهــشاشة جــسمها العجوز وانتشار الرائحة. قالت جدتي بُغْدادْ أنها رأت أُم حَوّاش طفلة على كتف أبيها حين جاء وحده من الفيوم، ليعمل خادما في مقام سيدي عبد الله فساعده النــاس فــي بنــاء حجرتــه الملحقة بالساحة . مات حواش وبقيت ابنته أُم حَوّاش تنظف المقام وتضيء اللمبات الأربــع وتفتح المقام بنفسها للزائرين متى شاءوا، لا تسلم مفتاح المقام لأحد سوى رجل يجيء كل عام، في العشر الأوائل من رجب، ينطر حبله حول شاهد القبة متسلقا بجردل الجير الأصــفر وصفيحة اللون الأخضر، ليدهن القبة ثم حجرة الضريح وخشب المقصورة، فسقف القبة مــن الداخل، ثم يمضى دون أن يأكل شيئا أو يأخذ أجرا ويأتي بعده من يغير الكسوة كل عام، أمــا الحصر القديمة فيتطوع أهل القرية بتغييرها كلما بليت.

سألت أبى لماذا كل المقيمين حول مقامات الأولياء من الفقراء فلم يــرد . كانــت النــسوة يحملن الصواني على رءوسهن عليها أطباق الأرز باللبن المحلى بالسكر الأبــيض أو العــسل الأسود، يفوح منها الماورد، وصوان أخرى عليها أطباق فول نابت وخبز طرى، نخرج نحــن الفقراء من أهل الله والساكنين في حمى سيدي عبد الله، نسير خلفهن وهن يطرقن باب حجرة أُم حَوّاش ويعطينها طبقها، ثم تفتح لنا الساحة وعلى إحدى المصاطب توضع الصينية فنلتــف حولها ونأكل بلا ملاعق،حتى إذا شبعنا قالت النسوة في رضا:

ــ "بالهنا والشفا عقبال السنة الجاية شي الله يا سيدي عبد الله"

طعنت أُم حَوّاش في السن ولم يعد أحد يهتم بإضاءة اللمبات الأربع داخل المقــام، انقطــع النذر واستعاد الورثة أملاك أسلافهم الموقوفة للمقامات. لم تعد الموالد تقام بانتظام وقلّتْ فيها حلقات الذكر والمدائح النبوية، زادت المراجيح في الموالد وبنادق الرش وكثر الحواة وأصحاب الثلاث ورقات والأراجوزات والمتسولين وتضاءلت أعداد الصواني المقدمة لأهل الله، أو لــم تصل لمستحقيها بعد تعرضها للسلب والخطف فازداد عدد الغفر في الموالــد واختــل عقــل أُم حَوّاش، كانت تخرج للشارع فتطرق الأبواب ليلا وتسأل الناس بعيون زائغة عن بطة تائهــة

قامت عن البيض، تعيد السؤال بلهفة الفقد مئات المرات ملتاعة بينما النسوة والأطفال يوقفنها ويضحكن منها، فتزداد الحيرة في عينيها . لم تعد تعرف الناس، تناديهم بأسماء ناس ماتوا من زمن سحيق، لا تعرف ما بيدها، يخوفونها بأن ترجع لدارها فلا يأخذها العسكري الواقف على باب الشارع في البوكس:

ــ "والبوكس هياخدنى ليه وأنا عملت حاجة؟"

تعود فتتساءل في حيرة وفزع:

ــ "لسه البوكس واقف ياولاد؟"

ازدادت حالة أُم حَوّاش سوءا فكانت تخلع هدومها بهدوء، تظل عريانة في الشمس بجوار الحائط تنقى هدومها من الحشرات، تستحم في طشت بالشارع وتمشط شعرها بفلاية خشب كبيرة منزوعة الأسنان، تقضى حاجتها جنب الحائط ثم تغطيها بالتراب وتنادى على الماشي بلهفة وإلحاح:

ــ "ماشفتش ياللى ماشى بطة تايهة وسايبة البيض؟"

كررت السؤال بصراخ مئات المرات فأغلق الناس عليها الباب من الخارج بقفل لا يفتح، كانت تبص من حديد الشباك وتصرخ :

ــ "افتحوا لي يستر عرضكم ولا يكشفش راسكم"

ظلت أُم حَوّاش سبع سنوات تطل برأسها المستطيل من حديد الشباك، تكلم نفسها وتنادى الذين ماتوا من زمن وتدعو بحرقة القلب على من كانوا السبب في ضياع بطتها وحبسها:

ــ "يا مسلمين حرام عليكم البيض هيمشش والبطة تايهة"

يمد لها الناس من بين حديد الشباك صحن طبيخ أو أرز أو رغيف، تتبول وتغوط في مكانها، لا تستحم إلا في المناسبات عندما تتطوع فاطمة أم غَزّاوِى بفتح القفل والقيام باللازم. عندما مَدّ حسين ببير يده لها من بين حديد الشباك بصدقة العيد ولم يجدها، زر عينيه وقرب وجهه من حديد الشباك ونادى فرآها مرمية في عتمة الحجرة متعفنة ومنتفخة. قامت زاد المال بالغسل والتكفين على مضض وبسرعة ودفنت على عجل في وجود قليل من المشيعين الذين أحسوا بالارتياح لموتها وظلت حجرتها ملحقة بالمقام لا يقربها أحد.

كثر الذين يطالبون بمنع الموالد وتطاول إمام التقوى فطالب بهدم المقامات لأنها فتنة وكفر، نهى الناس عن الصلاة في المساجد التي بها مقامات. تعالت السخرية ممن يوفي بنذره فيعمل خاتمة أم هاشم بالفول النابت والخبز الساخن والأرز باللبن، فتضور أهل الله المقيمين حول المقامات وخجل الناس من الانضمام لصفوف الذكر فلم يحمَ الذكر أو يسقط الذاكرون مغشيا عليهم من الوجد لطرقات الدفوف وهدير الإيقاع والتصفيق وخرجت(الله حي)من أفواه الذاكرين ضعيفة وواطئة. عاد خطيب مسجد التقوى فاتهم الأولياء بأنهم دجالون ونصابون ووصف الكرامات بأنها خرافة ودعا لهدم الأصنام وتنقية الدين من الشوائب التي تنافي الدين

والعقل والمنطق، تململ سيدنا في جلسته بالصف الثالث، خرج عن هدوئه المعهود متخليا عن ابتسامته، زر عينه السليمة متوجها للمنبر وقال إنما الأعمال بالنيات، ما نفعله لـــيس كفــرا، نؤمن بالله وحده وبسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ونزيد على ذلك بحبنا أهل بيته، أولياء الله تعالى، نحبهم في الله هم القدوة لنا ولو رأيناهم لقبلنا أيديهم، أما وقد جئنا متـــأخرين فلـــيس أمامنا إلا أن نقبل أضرحتهم وأعتابهم والتراب الذي مشوا عليه، أيكفر من قبل حبيبه أو أثـــرا لحبيبه؟ ما الذي كان في قميص يوسف متسقا مع العقل حتى يضعه يعقوب على عينيه فيرتـــد بصيرا،؟ وما الذي كان يعلمه الخضر وهو يخرق السفينة ويقتل الغلام ويقيم الجدار؟ أنـــت لا تفهم حين تتطاول على آل بيت النبي، وقد قرأت من آذى لي وليا فقد آذنته بالحرب وتركـــت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا كتاب الله وعترتي أهل بيتى، ألم يقل ســـيدنا مـــن كسا عريانهم فقد كساني ومن أطعمهم فقد أطعمني ومن أعزهم فقد أعزني وبإسناده فقد حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتي، أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم. أظهرْتَ الحق وأضمرْتَ الضلال وعمى قلبك فمن يرى أكثر ممـــن ؟ وجذب حذاءه وغادر المسجد، فتبعه أكثر الناس بينما وقف إمام التقوى حائرا أمـــام الجمـــوع المغادرة.

(١١)

كان الطفل عاري المؤخرة يتبول على باب حجرة مريم الحرايري كلما أغلقته في ظل غابة كثيفة بتلقائية غير مهتم ولا متأثر بما حوله، كان بإمكاني تحديد عمره دون رؤية الوجه، أربع سنوات ليس أكثر، كان حافيا على العشب، مطمئنا وجميلا تضيئه بقع الشمس. بدا جمال اللوحة وسحرها في اختلاس اللقطة من الخلف فقالت مريم: فيم تفكر؟ لم أقل أن ما فعلته دون وعى ــ حين رفعت الثوب وتبولت على الحائط ــ قد أفضى إلى كل ما حدث، حيث نسوة الدرب هرعن وصرخن وتكالبن عليّ فانقطع التيار ومدت أمي يدها وجذبتني للداخل في لهفة، وخلعت جدتي بُغْدادْ فردة الحلق من أذني اليمنى، وزغرد حسين بيبرس وهو يفصل جلبابين أولادي مخططين ويأخذ فردة الحلق من جدتي بُغْدادْ ويقول أنها الآن له، وجاء فتحي المزين فقص شعري الطويل وأخرج الموسى والبوصة وبدأ الختان وأوقدت أمي الكانون ووضعت اللحم. تلاحقت الأحداث فلم أعرف إن كنت أبكى للألم أو لاحتباس الماء أسفل بطني وأنا أباعد ساقي في جلبابي الجديد المخضب بدم الختان أو لزعمهم أنني الآن يونس الولد. يومان أبكى ويومان وهم يضحكون لأن نذر جدتي بُغْدادْ حين أسمتني نوسة كي أعيش، وأدخلتني سبع مرات من طاقة سيدي عبد الله، ظل مؤجلا خمس سنوات، أجوب الشوارع خلالها بالفساتين وقرط الجدة يتدلى من أذني اليمنى، حتى رفعت ثيابي وتبولت على الحائط.

كبعير ينكص بعد الفطام كنت أمط عنقي وأدمن النظر للخلف كي لا أرى الطعام. لم يرق لي الاسم الجديد ولا شعري القصير أو هدوم الصبيان فاستمرأت العزلة والبكاء. استطعمت مرارة الطمي في فمي وبرودته فلم تفد شربة الملح التي وصفها فتحي المزين ولم يُجْد علاج الدكتور حسين كامل في علاج الهزال، وملني العيال الذين جلبوهم ليلعبوا معي فاقترح حسين بيبرس أن يرسلوني إلى الكتاب. انكسرت العزلة بصخب الكتاب واللعب في الشوارع والغيطان لكنني ظللت يخايلني النكوص لاسمي القديم نوسة، كأنما يونس لولد آخر، لا أنتبه لوقعه، أسير في الدرب مفتقدا للتناسق، تائها كأنني نائم، لا يوقظني سوى ضحك النسوة المفاجئ وسخريتهن الفجة من نحافتي المفرطة وساقي المفتوحتين للخارج كساقي على أبو بهايم، فأنتبه لعدم ضبط الملابس أو تنافر ألوانها الحاد.

كبرت فامتنعت عن ارتداء القمصان بنصف كم لنحافة ساعدي المفرطة ولم أدخل قميصا داخل بنطلون، بالغت في إخفاء عيوبي الظاهرة كسكون ذراعي الأيمن أثناء المشي دون سبب مرضى ولجأت للإسراع في المشي والنظر للبعيد فلم تكف عيون النسوة المتلصصة وألسنتهن التي تطعن من الخلف عن الضحك المفاجئ لأتعثر في طوبة أو يلتف الجلباب حول ساقي وأسقط، يزداد الارتباك واللخمة عند بؤر تجمع النسوة أمام دكان منصور وعلى مصطبة أبى غانم وناصية شرارة ويستطيل داير الناحية لهذا الحد فلا يطويه أحد من تحتي كحصيرة لأنتقل

للجامع دون أن أمر عليهن. غرق في شبر ماء، ارتباك وحيرة للحد الذي لـم أشـعر بـالألم وأصابعي تتهتك، حين دهست حسيبة يونس على يدي وظلت تكلم أمي لوقـت امتـد دون أن أطلب منها أن ترفع قدمها، لم تؤلمني أصابعي التي تهتكت بقدر ما شعرت بالخجل وهى تجفل بقدمها عن كفي الصغيرة، حين انتبهت لنشيجي المكتوم الذي تعالى عنـدما طـال الحـديث وتشعب، فصرخت أمي رَحْمَة في ضجر من هذا الخجل الذي ضيعت به رواتب أبـى ونكـأت الجرح:

ــ "طالع بتنكسف لمين.. انت مش راجل؟"

قالت حسيبة وهى تربت كتفي وتنفخ في أصابعي:

ــ "معلهش يا حبيبي.. والنبي يا رحمة الواد ده طيب.. الخالق الناطق أبوكي على"

انسكبت دموعي المختزنة، وآلمتني أصابعي، ولم أر على أبو بهايم ــ جدي لأمـي ــ الـذي رفعه البعض لمرتبة الولاية لقلة كلامه وخجله وميله إلى الصمت والعزلة وأهملـه الآخـرون لنفس الأسباب، حتى مات في هدوء دون أن ينفي أو يؤكد ما نسب إليه .

(١٢)

صارت غيطان القطن سجادة خضراء منقطة بالأصفر، موشاة الحـواف بتـوت وكـافور وزنزلخت وطار البط البرى والإوز العراقي على سطح المصرف الكبير كبحيرة رشيقا بـين عيدان البوص. خضت حافي القدمين في براسيم وأقماح نابتة، أبحث عن خالي عِزْ الرّجَـالْ، الذي طلق الكتاب ووعدني بتختين الجميز فسميته جمال عبد الناصر، لكنه لم يجيء، تجذبني عبر المساقي والقنوات والمدقات والمعديات رائحته التي لا أخطئها:

ــ "ما شفتش خالي عز يا عم طه؟"

جف اللبن من ثدى أمى رَحْمَة دون سبب قبل أن أتـم عـامي الأول، فأكملـت الرضـاعة منضما إلى خالي عز من جدتي قِشْطَة التي ظل صدرها يفيض باللبن ويبـل الهـدوم ثلاثـة وأربعين عاما، حتى عاصت حلمتيها بالمر وعصير الصبار فانفطمنا.

أحببت خالي عز وسميته جمال عبد الناصر حين طلق الكتاب بلا رجعة فحكى لـي لمـاذا اختار الجميز الوقوف في مداخل القرى وأمام مقامات الأولياء وانتشر التوت والكافور علـى حواف الترع الكبيرة بينما فضل السنط أماكنه المهجورة ومدقاته البعيدة الحـارة واقتـصر الصفصاف بفروعه الطويلة المدلاة في الماء على المساقى الصغيرة والقنوات الهادئة فـسماه شعر البنت. بص أحمد أبو شامة لشمس العصاري فأدرك أن النهار قد غافله وانتهى، شـمر ذيل جلبابه الذي يعيقه وربطه أعلى وسطه،و تف في كفه ومسك الفأس بهمة.

ــ "ما فاتش عليك خالي عز يا بو شامة؟"

تطلع لشجرة الكافور ومسح جذعها بنظرة ثم هوى بفأسه على الحوال ولم يرد. تبين مؤخرته وأعضاؤه المدلاة، فيرجع النسوة والبنات المارات أو يخبئن وجوههن بالطرح وينظرن في الاتجاه آخر ويمرقن . حين تسلق خالي عز شجرته الكافور الشاهقة ذات الجذع الأملس، لم يكن أحد قد تسلقها من قبل، حتى قاطعي الأشجار رفضوا شراءها، صرخ أبو شامة في هلع وهو يضرب كفا بكف ويناديه بالتي هي أحسن حتى لا يسقط القرد عز قتيلا:

ـ ".. إنزل يا عز عشان خاطري.. إنزل يا حبيبي.. سقت عليك النبي تنزل ما تجيبليش نصيبة"

كان خالي عز يتسلق الشجرة كأنه يصعد سلما، يدندن لحنه العذب غير مهتم بصراخ أحمد شامة:

ـ "خلخالك رن على السلم وف عز الليل صحانى"

اقتربت الشمس من المغيب وتأهبت البهائم للعودة وأنا أتتبع رائحة لا أخطئها، تهب أحيانا وتخبو أحيانا حتى قال الناس:

ـ "وإيه اللى هيجيب خالك قرد هنا؟"

لم أجده عند جميزة الدبة وكان الناس يختنون جميز الأفرع القريبة من الأرض بينما كانت الأفرع البعيدة المائلة على الترعة كما هي دون تختين في انتظاره ليمتطيها كحصان ويمد يده إلى آخرها، وبظفره يكشط جزءا من جلد ثمر الجميز النيئ ليعود بعد جمعتين فيجمع الجميز الذي ختنه.

ضاقت المدقات واختفي المارة والبهائم وتلاشت رائحة الليمون حين تجاوزت المائة فدان ملك محمد أفندى عُلْوَان المزروعة بالليمون والمسورة بالجازورين والسيسبان، اختفت كرة الشمس الحمراء خلف شجر السنط الذي يزرعه الشيطان بأوراقه الإبرية المتربة داكنة الخضرة، انتابني الخوف حين اقتربت من ترب النصارى، فكرت في الرجوع خوفا من الشياطين وشوك السنط الذي يخرم النعال حتى القدم واللصوص وقطاع الطرق يدبرون جرائمهم أو يقتسمون غنائمهم، تزايدت مخاوف الجدة قِشْطَة ممن سيطرقون الباب بين لحظة وأخرى ليخبروها بموت عِزْ الرّجَالْ لسقوطه من أعلى شجرة كافور أو انهيار قبو عليه .

وكان خالي عز قد أجاد بناء أفران الخبيز حين خلط الطمي بروث الحمير الجاف وشعرها المقصوص لتمتزج الخلطة وتختمر فلا تتشقق بفعل الحرارة، كما بنى المقابر ذات القبو وخزانات الصرف وسلالم الطين وأبراج الحمام ونسج الزرابي وغزل صوف الغنم ووبر الجمال وصنع من خوص النخيل برانيط ومقاطف ومن الجريد أقفاصا ومطارح للخبيز وبيوتا للدجاج.

تداخل السنط مع وشيش عيدان الذرة ولاحت لي أشجار التوت الرومى والبنسيانا في فيلا الدكتور حسين كامل وطن صفير في أذني كأنما عفريت جدي عبد النور يستدرجني للساقية التي قتل فيها فقطفت وردا أحمر يتدلى من بوابة الشواربي وانقبضت للظلمة المفاجئة أمام

سور الجازورين الشاهق المحيط بعزبة هدى هانم شعراوى، يفصلني عنها مصرف بلا معدية .اختفت ثمار البرتقال والجوافة المطلة من سور الجازورين ونباتاته الخضراء ذات الشوك. بكيت بين عيدان الذرة الواقفة كعساكر مسلحة وتركزت الرائحة في أنفي فأيقنت أنه هنا. كأنها غبشة الصبح حين طن الصفير في أذني، كنت أرى، رغم الضباب الكابس على ضفتي الترعة، دخان مكامر من فحم وقمائن من طوب يحترق ومحارق للطمى المصنوع أباريق ومحالب وقلل ومتارد وطواجن وعُرَس ومواجير متناثرة وسط طمي النيل الناعم كرمل مصحون .كأنه نهار يشقشق أو ليل يدخل حين طغت رائحة البرتقال والجوافة فقلت إنه هنا وفاجأني ــ كأنما أستيقظ ــ ضوء طفيف وانتهت فجأة الحقول وظهر قضيب قطار، كأنني أسير في فراغ أو على الماء، كانت الرؤية شحيحة لكنها تكفي لأن أميز أن الراقد أمامي أشلاء هو خالي عز، استشعرت طعم الطمي في فمي، جاهدت حتى أميز نقاط الدم الجافة والمتناثرة على حصى البازلت المنحدر من طريق القطار، كانت الرؤية شحيحة بالفعل لكنني أدركت الرائحة وقلت أنه عز، كان باستطاعتي أن أميزه لو ضمت أشلاؤه، كأنما يباهى بجسده العاري بين نبات الهوك ذي الأوراق العريضة الخضراء والزهور الحمراء القانية قبل أن يقفز برأسه في الترعة أو يحلق على فرس النبي الأخضر وأبى الدقيق ويطارد كلب البحر وحرامي الحلة في حقول برسيم يانع، نتقاسم عنب الذئب ونغسل أيدينا بصابون الغيط، ثقلت قدمي حين سخر من مؤخرة أبو شامة المكشوفة دائما وقفز في الترعة من بين عيدان الهوك بزنابقها الحمراء وحباتها الخضر كحبوب مسبحة مضيئة، كانت هدومه في يدي حين اتجه للنهر الكبير وعبر قنطرة اللبش عكس التيار للنهر الكبير، أقسم لأمه قِشْطَة ألا يذهب للكتاب، زاد الصفير في أذني كأنه قطار فارتطمت الزنابق بحصى البازلت وانفرطت بذور الهوك كمسبحة وخفتت أغنية خلخالك رن على السلم وفارق فارس الوشم حصانه وضربني سيدنا بالعصا لأنني آكل الطمي وارتش وجهي برذاذ ساخن كأنه دم، فتحت عيني فرأيت قِشْطَة ترشني بالماء والجدة بغداد في جلبابها الأسود الكالح تدعك ظهري وترقيني:

ــ "أنا شفت خالي عز.. شفته والله العظيم يا جدة"

أخذوني لكل الأماكن التي ذكرتها، وأغلقت المدرسة أبوابها في وجوهنا وكان الجميع يبكون، حتى الرجال على القنطرة وكنت مذهولا أستفسر ما الذي يحدث، كان الرجال والنسوة والعيال خلفي، يضيئون بمشاعلهم أسفل أشجار السنط والبازلت المنحدر من طريق القطار، فرزوا الحجارة ومسحوا الطريق ودققوا بأعينهم الضيقة في المصارف والترع وكان الناس من جميع القرى على شريط القطار يبكون ويفتحون أجهزة الراديو ليتأكدوا من الخبر، وأحسست أن مأتما كبيرا يقام وبكى سيدنا بدموع حقيقية:

ــ "الله يرحمك يا بطل"

تحولت القرية إلى مأتم كبير وأقيمت السرادقات وفتحت المضايف ودور المناسبات لتقبل العزاء وطاف الناس في الشوارع وفرشت الحصر على المصاطب فقلت صدقوني لقد رأيته.

ـ "إلى جنة الخلد يا حبيب الملايين"

لم يظهر خالى عز، كنا قد سميناه في ذلك اليوم جمال عبد الناصر حين طلّق الكتاب وعبر للنهر الكبير وجلسنا ننتظره أنا وغَزّاوِى تحت عامود العَلاوْنَة المضاء، نستلقي على ظهورنا في الخلاء، نبحلق في قمر السماء لعله يعود، نحلم بفاكهة وبيوت نظيفة ووظائف راقية ونساء جميلات بوجوه مستديرة، تكرر وقوع صفيحة الماء من يدي في حظيرة الدجاج المعتمة عندما رأيته جالسا لا يتكلم، أقسمت لكن أحدا لم يصدق. بدا أنني مخضوض أو صفر عفريت في أذني فرقتني جدتي قشطة وسقتني جدتي بغداد طاسة الخضة. نقَعَت البلح في الندى ثلاث ليال قبل انتهاء الشهر العربي، تحطه في المساء وتشيله قبل الشروق. شربته فلم أعد منذ ذلك الحين أرى خالي عِزْ الرّجَالْ أو يراه أحد، وإن ظلت جدتي قِشْطَة وجدتي بُغْدادْ في انتظاره حاجزتين له عشاءه كل ليلة، موقنتين أنه سيعود ربما آخر الليل بردانا وتعبانا.

(١٣)

منذ غاب خالي عِزْ الرّجَالْ والنوم لا يطيب لي إلا تحت عيدان الحنة. كان سور الحناء يتكاثف حول دار جدتي بُغْدادْ، نهذبه فيستطيل، نقطف أوراقه فينبت أخضر ومورقا كأنما العيدان واقفة تصر على انتظار الحبيب الغائب.

ـ "جدة.. عايز أنام"

ربتت فخذها براحتها وأومأت برأسها، ركنت لوحي وجعلت من فخذها ـ تحت شجر الحناء ـ وسادة، كانت تفرك أوراق الحناء الجافة، جذبت الرائحة النسوة فجئن للمساعدة، تناوبن الفرك والطحن والأحاديث، تغمض عينى وتتفتح، وقعدة الحناء منتصبة، ووجه جدتي قشطة الأبيض، تزيده الطرحة السوداء بهاء، تهدهدني حكاياتها المعادة للنسوة عن لبنها الذي لم يجف وحيضها الذي لم تره.

تغمض عيني وتتفتح، فتعلو كومة الحناء المطحونة، أدفس وجهي في الصدر، فأشم رائحة اللبن القديم في هدومها، بينما ينساب صوتها العذب، حمل فرضاعة نظيفة بلا حيض ثم فطام فحمل فولادة، رحمة ومكة وثبات وذكور لم يعيشوا، احترام ونور وعطية الذي مات، ثم قوت القلوب وعطية الذي عاش، منتهى وصدفة التي ماتت، ثم آخر العنقود عز الرجال . أغفو على لبن لا يجف وحيض لا يجيء وأصحو على ألق ينضح من وجه أبيض مستدير تضيئه طرحة سوداء معصوبة على الجبين، تتدلى ذؤابتاها على صدر لم يجف، استأثر به عز الرجال أربع سنوات وشاركته في الخامسة حتى دهنت حلمتاه بالمر وعصير الصبار فانفطمنا. وكانت المرة الأولى التي ينبت فيها شجر الفرح بحق في سور أخضر وصغير حول دار جدتي بغداد، يتعهده خالي عز فيكبر دون أن يشبع حيرة الناس وفضولهم حين يتساءلون عن الذي زرعه عز:

ـ "حاجة تعرفوها بس ما بتطلعش هنا!"

ينزلون عن حميرهم ويقربون أنوفهم من الأوراق الصغيرة ويخمنون. تيل؟ ملوخية؟ نبق؟ سيسبان؟

ـ "لأ .. شجرة الفرح!"

يصرخ حسين بيبرس ويستلقي على ظهره ثم يقبل خالي عز ويزغرد:

ـ "والله يابنى قلبى كان حاسس.. حنة.. وانا أقول كل ما امشي من هنا الزغرودة بتطلع غصب عنى ليه يا ولاد؟"

و قال الرجال الذين غلبت حميرهم:

ـ "يخرب شيطانك يا عز يا بن قشطة، دى الحنة بنشوفها مشنات وقفاعات ونعرفها مطحونة.. وادى احنا عشنا وشفناها خضرا.. الله يجازى شيطانك"

تغمض عيني وتتفتح فتعلو كومة الحناء المطحونة، ويتعبق الجو برائحة الفرح وتتوق أكف النسوة والبنات أن تخضبها بشائر الحناء حتى تتفتح عيني ولا تغمض على دموعها المتساقطة وصوتها الذي يقطعه النشيج:

ـ "تحرمي علينا يا دي الحنة لحد ما يرجع ضنايا ونور عيني"

تذوى الأحاديث وتعلو مصمصة الشفاه، وتنقلب كالعادة لحظات الفرح دون تمهيد فتحرم جدتي قشطة الحناء وتمتد الأيدي التي كان تتوق للتخضيب منذ قليل فتعبئها في قواديس من فخار تغلقها بالطمي جدتي بغداد، وتقسم فيقسم كل من في القعدة أن تحرم الحنة على كفيه كما حرم عليه بز الأم، حتى يفتح هذه القواديس المغلقة الذي زرعها دون أن يجنيها، ويخيم الصمت على قعدة الحناء .

(١٤)

كان الأتوبيس هادئا وخاليا حين ترامى الصوت شجيا من راديو مقهى:

ـ "تلات سلامات يا واحشنى تلات ايام"

أرحت رأسي على زجاج الشباك، تمنيت أن تظل الإشارة مغلقة حتى ينتهي قنديل من أغنيته.ثلاثة أيام ومريم لا تجيء للكلية.أفتح أبواب أروقة الدروس وعنابر المرضى فلا أجدها.انبثقت دموعي وراوغني طيفها، اعتملت في صدري أشواق لم أحسسها من قبل ، انجذبت نحو مصر الجديدة كما ينجذب المريد لشيخه، تجمعت آلاف الصور والمواقف الصغيرة لمريم، تعاظمت واتحدت في صورة كبيرة، انتصبت أمام عيني فلم أر الناس في الشوارع وأوشكت أن تصدمني السيارات المارة. هل كانت دموعي غزيرة حتى يهزني الرجل على الكرسي المقابل؟:

ـ "يا بني فيه حاجة.. مالك فيه إيه؟.. تعبان؟"

تصاعد اللحن وتكاثف:

ـ "بإيدى سلام وعينى سلام وقلبى سلام"

نزلت في المحطة التالية، فضلت السير، هفت روحي لمذياع مفتوح على نفس الأغنية، تنبعث ولو من كشك سجائر على الرصيف، لا مقاه ولا أكشاك بمصر الجديدة، شوارع طويلة متشابهة لا تنتهي تفضي إلى شوارع واسعة بلا مارة، تفضي إلى صحراء مفتوحة وقاسية، كأنما هذه العمارات البيضاء لا يسكنها أحد، جمال ينقصه نهر صغير أو ترعة تخفف هذه المتاهة والوحشة، تصاعد صوتي باللحن أنا السائر الوحيد في شوارع مصر الجديدة، تحت شمس أبريل الدافئة وجوه الصحو، تهت مرة أخرى عن سليمان عزمي فآنسني اللحن ودفء

الجو. حين رأيت شباكها الذي على قاعدته ورد بلدي في آنية من خزف، طفت علـى ذهنـي قصائد لم أحفظها، صرت مقبلا على الحياة بشكل جارف وكان الورد يتفتح في موعـده دون ما صخب.

ـ "تصوري.. سمعت "قنديل" وأنا جاي.. كأني أول مره أسمعه"

-'' كأنك لم تكن تعلم إلا اليوم أنه أروع الأصوات المصرية على الإطلاق؟''

شيء ما في تكوينها يسحرني، لا أعرفه، هدوء رزين وساحر وبريء، فاجأتني بحبها المطلق لقنديل وضغطت مفتاح المسجل، انسابت العذوبة والشجن والسماح، صوت ملائكي موغل فـي الشجن والحب والتواضع لم أحسه إلا في صوت الحصري، فهل تعلى مـريم الـصوت حتـى يرتوى الذين جفت أرواحهم؟

ـ "داووا الجراح وانسوا اللى راح.. يا بخت من سامح"

عجيب أمر مريم الحرايرى، حين تبدو مهشمة من الداخل، مشرفة علـى الانهيار،تـداوى جراحا لا تتداوى، أجدها غاية في الصلابة والغرابة . ترفض استئناف الدراسة ببساطة كمـا ترفض ارتداء فستان. تتناقش بهدوء وبساطة توحي بأنها ستتراجع،لكنها تصر وتتمسك، تتكلم عن الماضي بحنان وعتاب يغفر للكون خطاياه . تراودها الخواطر وتتوالى على رأسها الصور كشريط عرض: الأم، الأب، سوريه، مصر، الوحدة، أيام الطفولة ، تقف آلـة العـرض علـى مشهد حجرة أبيها سيد الحرايرى، يثبت المشهد وتتسمر حدقة العين فتتـضح تفاصـيل فـي الحجرة لم تكن رأتها من قبل، تظل ساهمة ومحدقة بنصف اليوم، يظن الناظر إليها أنها تمثال أو أنها لا تتنفس، أهزها فتفيق كمن كان يحلم، تستعيد وعيها وتبص في ساعتها، تكتشف أنها تركتني دون حديث لساعات، تبكى بصدق معتبرة أن ما فعَلَتْهُ هو نوع من قلة الذوق.

اتخذت مريم قرارات غريبة وأجرت على نفسها تجارب بالغة القسوة .اعتـصمت بـشقتها ثلاثة اشهر، لا تخرج ولا تطل من نافذة ولا ترد على تليفون أو تفتح تليفزيون، حـين قـرأت اسمها في كشف معلق على مربع بالحائط بأسماء الغرباء من الصومال والـسودان وأوغنـدا وإيران وباكستان. كانت المرة الأولى التي ترى اسمها ضمن غير المـصريين،الذين يجـب أن يسددوا مصاريف الدراسة بالدولار، كانت أمها قبل أن تنتقل لشقة زوجها شرف تقـوم بكـل شيء. سألت الموظفة بانفعال كيف تقع في مثل هذا الخطأ، ردت الموظفة بهدوء بأنهـا لـم تخطيء، أوصلها الانفعال ورد الموظفة البارد للبكاء، احتـضنتها رئيـسة شـئون الطلبـة واعتذرت لأن الموظفة ربما لا تعرف الفرق بين المغتربين والغرباء، تأثرت لأن كلمة غربـاء مؤلمة فعلا وحادة ولا تنطبق على مريم الحرايرى، ربتت ظهرها واعتذرت مـرة أخـرى لأن الظروف الراهنة غير مواتية ولا تسمح بأقل من ذلك ووعدتها بالتدخل لدى العميد.

كانت المرة الأولى التي يقول لها أحد من ثلاثة وعشرين عاما أنها غريبة، لـو أن سـيد الحرايرى سمع هذا الكلام، لأصبح أكثر عزلة في غرفته، إن لم يسلمه الحزن للمـوت. ثلاثـة

أشهر قضتها مريم في شقتها لا تكلم أحدا ولا تفتح شباكا، بعدها قالت أنها كانت في سورية، ثلاثة أشهر داخل شقة مغلقة، وذاكرة رحبة لا تعترف بعلاقات مقطوعة أو إجراءات مهينة على الحدود، طفلة لا تفارق دار أبيها الكبيرة في نبع العيون، أسعدها أن تستحضر الدار كاملة وحجرة أبيها، حتى أنها كانت تركض في ممراتها وتعبث بأشياء أبيها، التي بإمكانها الآن أن تحصيها وتذكرها كأنها تراها أمام عينيها، أو كأنها رأتها بالأمس فقط، استطاعت أن تذكر ما كتبه عبد الناصر في رده المهذب على خطاب أبيها الشخصي واكتشفت الطرق والمدقات في نبع العيون وتذكرت وسط هذا الصفاء الصبي الذي كان يجري خلفها ويمرح فسقطت على ذقنها وأصيبت بندبة موجودة للآن كنغزة، هل كان اسمه شهاب؟ حين أحست أنها تعافت،عادت وحدها للكلية لكنها أكثر صمتا وعزلة.

امتنعت وحدها عاما عن أكل الطيور واللحوم حين رأت – في صدر النشرات – بشرا متهالكين وممصوصين ينتظرون بأطباقهم الفارغة أمام دقيق المعونة المعجون بماء، وكفت عن الكلام شهرا، لا يخرج صوتها، حتى السعال كانت تتجنبه حين انتقلت أمها للإقامة في شقة زوجها، واستخرج طبيب منشية البكري العام مائة قرص أسبرين حين ألغى الاحتفال رسميا بعيد الوحدة وقال مستغربا :

– "وحدة إيه يا بنتي!"

أوقفت العقاقير حين رأت الوقت ضيقا. عالجت نفسها بطريقتها . هامت في أرض الله الواسعة، تتعرف على بلاد لم ترها وتعقد صداقات أليفة وحميمة تعلم أنها لن تدوم. يجيء النزيف فتستلقي على الأرض، يصب أناس لا تعرفهم الماء من الطلمبات على رأسها، تستريح قليلا تحت ظل الشجر ثم تبتسم وهى تتذكر طبيب منشية البكري وتعاود المسير.

(١٥)

وحدها – دون كل دور القرية – كانت دار جدتي بُغْدادْ تحوطها عيدان الحنـــاء، يتـــسلقها اللوف واللبلاب والقرع العوام صيفا وست الحسن بوردها البنفسجي شتاء وقد جلبها خالي عِزْ الرّجَالْ من أكشاك السكة الحديد على المزلقانات عقلا صغيرة ومتسلقة. كانت الـــدار كبيـــرة بالفعل، تفتح على خلاء، مبنية بالطوب اللبن ومسقوفة بعروق الخشب المـــصري واللـــوح، ملساء الجدران كزجاج بلون الطمي المخلوط بالتبن منذ دهكها الشافعي أبو شامة.

يبدأ اليوم حين تفتح جدتي بُغْدادْ شباكها، فتصطدم ضلفتاه بالقرع الأخضر المدلى كلمبـــات كبيرة . ترد الصباح صباحين للنسوة المارات يدفعن النوم بالتثاؤب ويلقين عليها الصباح وإن لم يروها، تعلم من الخطوة والصوت من التي صبّحت، تصعد السطح لتـــشرف علـــى البنـــات والنسوة وهن يقشرن كيزان الذرة ويفرطن الحب ويلزقن الجلة ويجمعن الأقراص التي جفت، وتتمم بنفسها على قواديس الفخار المملوءة بالحناء، عمل لا ينتهي وأوامر متواصلة، ووشـــم يرتعش على الذقن حين تضع كفها أمام عينيها لتتقى الشمس، تضيق مـــوزة زوجـــة خـــالي عطية:

ــ "راسك بقى يا جدة.. عرفنا اللي هنعمله.. راسك"

تعلم جدتي قِشْطَة في حجرتها المقابلة أن البنات والنسوة قد تذمرن من الجدة بُغْدادْ فتنادى:

ــ "أمه بُغْدادْ.. أمه.. انزلي.. كفاية النهاردة"

تشفق جدتي قِشْطَة على بناتها ثبات واحترام وزوجة خالي عطية من أوامر أمها بُغْـدادْ التـــي تتدخل في الصغيرة قبل الكبيرة وتزق بالكلام الجارح وتغضب من أشياء بسيطة، حتى تمـــسك موزة بحلق الثوب على نهديها النافرين وتهدد:

ــ "أشق هدومي للذيل يا جدة بُغْدادْ.. حرام عليكي كفاية قر"

لم يكن بوسع موزة أن ترضى جدتي بغداد وتمنع ــ حين تنحني لتكنس أو تطارد الطيـــور ــ نهديها الكبيرين من التحرك أو ثوبها أن ينحشر بين إليتيها فتزعق بُغْدادْ بالصوت العالي:

ــ "خشي يا بنت الكلب البسي لباس.. الرجالة ماشية في الشارع"

ترمى موزة ما بيدها بغضب وتجذب مصطفي، تخرج له الثدي المنتفخ باللبن من فتحة جانبية أمام الإبط، عملتها في ثياب الفرح لسرعة الحمل والولادة، يلقمه مصطفي حتى يشبع، يتسحب الثدي وحده من نفس الفتحة حين ترجع ظهرها للحائط، تبص لجدتي بُغْدادْ بقرف وغيظ.

بدأ كره جدتي بُغْدادْ لموزة منذ انتبهت لبروز ثدييها يوم الصباحية بشكل ملفـــت، ولعـــب الفأر في عبها حين لاحظت ميلها للنوم والكسل والقيء وقلة الطعام، وأصبح الشك مؤكدا حين ولد مصطفي أول السابع كاملا يمص إصبعه، مفتوح العينين يعرف طريقه للبز . لم يحن قلبها

للولد ولم تحمله أو تعمل له سبوعا، ولم تشتكى موزة من هذا التجاهل لأن دواءها آن ذاك لم يكن سوى السم، لولا أن جدتي بُغْدادْ كانت تعلم أن عطية ابن قِشْطَة أيضا ولد وسخ وكل زيــر يبحث عن غطائه، فلم تسلم الحمارة والنعجة من وساخته فالتفت الجدة بغداد بملاءتها وطلبت موزة لعطية، لكنها لم تكن تتصور أن تصل قلة الأدب لأن تزف موزة وهى حامل . حز الأمــر في نفسها كثيرا فلم تغفره لهما وظلت تتف كلما ميزت رائحة الجنابة:

ــ "رُشّوا جتتكم بشوية ميه.. إيه؟ ما بتشموش؟"

حظرت جدتي بغداد على خالي عطية وموزة نزول حقل الباذنجان والخيار أو الاقتراب مــن فروة الخروف التي تجلس وتصلى عليها، لأنها لم تثق مطلقا في صحة طهارتهما من جنابة أو حيض أو نفاس، وكان عطية يخبط كفا بكف متعجبا ويرجع طاقيته للخلف فتبين فتحتا رأســه الرفيع كنسناس عميقتين وتبرز أسنانه الأمامية كقرد منفذا ما تقوله الجدة بُغْــدادْ. لــم تحــب مصطفي بن خالي عطية ولم تحمله إلا كالغرباء حين يصرخ من مزق في ضــلوعه، فترقــده على ملاءة تمسك طرفها بينما تمسك جدتي قِشْطَة بالطرف الآخر، سبع مرات مــن الجــذب والشد بين طرفي الملاءة ، يتدحرج مصطفي على الملاءة بين جدتي بغداد وقشطة حتى ترتــد ضلوعه إلى أماكنها، فتكسر بيضة على ظهره، تهدهد مصطفي حتى يستقر الصفار ويــسيح، يذوب وينفرش على ظهره من جهة الإبط، يطلق الجميع أنفاسهم المحبوسة حين يسيح الصفار على الضلوع الملوحة، فترشه بالردة وتربطه بقماط ثم تضعه في حجر موزة، وإن طلبت منها قِشْطَة بالمرة أن ترقوه رفضت في سخرية:

ــ "أرقى مين.. ده نجس بن حرام .. هو ده بينحسد؟"

فيما كانت جدتي قشطة سمحة وحانية، تغفر الأخطاء لدى أول ابتسامة، ظلت الجدة بُغْــدادْ على قسوتها وكراهيتها لموزة وخالى عطية وإهمالها للمولود مصطفي. وما دخل قلبهــا لــم يخرج منذ تأكدت بنفسها مما ظل هاجسا، ولولا خوفها من الله لما تدخلت حين ارتعشت موزة من الحمى وانقلب وجهها بلون الدم،و أوصت فاطمة أم غَزّاوِى بنقلها للحميات لأنها تمــوت. يومها دخلت جدتي بُغْدادْ متجهمة فأوسع الجميع، أخذت طريقها نحو موزة وهى تزغر لخالي عطية وجدتي قِشْطَة إذ لم يخبراها من البداية، كانت موزة تحت الأغطية ترتعــد دون ســبب وتتألم، كشفت جدتي بُغْدادْ عنها الهدوم فبان ثدياها منتفخين، ودون أن تعبأ لدهشة الواقفين، مالت عليهما بفمها ورضعتهما، انكمش الثديان فخف الألم والتوتر من وجهها وزالت الحمى وبدت موزة في عرقها الغزير عروسا مستحمة شاهقة البياض، منكوشة الشعر تبتسم للجــدة بُغْدادْ وتميل على يدها لتقبلها، سحبت جدتي بُغْدادْ يدها منتصرة وتجشأت في وجه الجميع:

ــ "حميات إيه يا ولاد الكلب وجدة بُغْدادْ عايشة ما ماتتش؟"

تساءلت فاطمة أم غَزّاوِى، هل يمكن لاحتباس اللبن في الثدي أن يحدث كــل هــذه الحمــى ؟ فتجشأت جدتي مرة أخرى ولم ترد .

ظلت الجدة بُغْدادْ تشرف في دارها الكبيرة على كل شيء، تصحو مــع الفجــر، تتوضــأ وتصلى، توقظ الجميع وتأمر فتحلب البهائم وتكنس الدار والشارع وتؤكل الطيور وتدلق ميــاه الاستحمام، ترتب ليوم السوق ويوم الغسيل ويوم الخبيز حتى غاب خالي عِزْ الرّجَــالْ فغابــت العافية وانهد الحيل وقعدت بعد هذا العمر الطويل من الشقاء على فروة نظيفــة أمــام البــاب تتطلع للقادم من بعيد ومحدقة، تنتقل بفروتها من الشمس إلى الظل، تتعجب من شراهة الولد مصطفي وثدي موزة الذي لا ترهقه الرضاعة فتزعق:

ــ "تزلى الكلب الفراداني ده يا بت وقومى اعجني"

ترمى الولد على الأرض بزهق وتبحث متأففة عن قفف الدقيق والمنخل الحرير،تأخذ الماجور بين فخذيها وتضع المنخل بين ذراعيها، بينما يلمح الكلب الوحيد ثدييها المعفــرين بالــدقيق يرتجان مع هزة المنخل فيعاود الصراخ، تجذبه الجدة بُغْدادْ إلى فرشتها بــلا اهتمــام .غــاب خالي عز الرجال، نور عينها، فبدا الوهن على وجهها المتغضن وفمهــا الخــالي وتــضاءل الجسم،آلت أمي رَحْمَة على نفسها أن تخرجها في الصباح وتدخلها في المساء ونبهت:

ــ "تنام مع ستك بُغْدادْ ربما تعوز حاجة"

صرت المرافق الوحيد لجدتي بُغْدادْ منذ غياب خالي عِزْ الرّجَالْ، أفتح الشباك وأغلقه،أشــعل لمبة الجاز وأعلقها في الحائط، أناولها إبريق الماء وأقرب لها الطشت لتتوضأ وقبــل النــوم أسخن قالب الطوب وألفه في خرقة لتضعه بين فخذيها وهى تتألم من سقوط في الرحم، كــان سقف البدن يطل من بين فخذيها كفردة شراب مقلوبة فترده بيدها وتتألم، أربعين سنة دون أن تجرى عملية جراحية لأنها حرمت على أحد بعد جدى عبد النور أن يطلع عليها ولو كانت هانم فودة الداية، استنكرت قريتنا ترملها منذ الصغر على بنت واحدة فقالت :

ــ " ولو.. قِشْطَة عندي بميت ولد"

لكنها لم تضغط على أمي أو تلزمها بما فعلت عندما عرض الشيخ عبْد الوَهابْ غُصْن عليهــا الزواج من أمي، بل نصحتها وقالت:

ــ "اقبلي يا رَحْمَة.. ما عزوبية إلا بعد جواز"

التفت أمي رَحْمَة تماما بالسواد وأخذتنا في حضنها:

ــ "قلت لك اقفلي الموضوع.. شبعت م الرجالة.. كفايه عليه دول"

ضحكت الجدة بُغْدادْ لأنها توقعت هذا الرد، قالت إن الذي في الآباء في الأبناء وخبطــت أمــي رحمة في كتفها.

كانت أمي نحيلة الجسم عصبية، حاسمة وملهية بطلبات وهمية،تبدو أكبر من أمها قِــشْطَة وأقرب في الشبه وحدة التقاطيع ولونها الأسمر لجدتها بغداد، مشغولة دائما وحزينــة، يطــرأ المشوار في ذهنها فتلهف طرحتها وجلبابها الأسود المترب، تدس رجليهــا فــي الشبــشب وتنطلق في الشارع، تدخل رأسها في طوق الجلباب الأسود وتلبسه ثم تضع الطرحة تكون قــد

خرجت من درب الخارجة لداير الناحية ، متجهمة لا تبدو عليها أنوثة، تتحدث بخشونة كأنها رجل، تساعد الناس في الغسيل ودلق المياه وتطليع المحاصيل على الأسطح مقابل أجر بسيط، تعود لنا ملهوفة والحواية على رأسها منسية ومضغوطة ومبرومة من كثرة الشيل، ننبهها فتزيحها عن رأسها بإرهاق وتبتسم حين تكتشف أنها مشت في الشارع وصلت العشاء وما زالت الحواية على رأسها. لم يطمع أحد فيها حتى أن عبْد الوَهابْ غُصْن تندر حين رفضت عرضه بتوبيخ أولاد الحلال له، وقولهم إن امرأة ممصوصة كعود الحطب، خلقت للشقاء، ليست على استعداد لأن تعطيه ما يرغب،و لاموه لأنه لم ينظر جيدا للشقوق في رجليها، وقال له سيدنا مُرْسِى:

ــ "سيبها في حالها.. الله يعينها هتاخذ منها إيه.. ماتنفعكش يا مفترى.. ما شفتش بزها وهى بترضع البت اللي ماتت منها.. بز الكلبة اكبر منه.. حرام عليك سيبها في حالها يا شيخ".

لم أعلم ــ على وجه التحديد ــ ما الذي حدث لجدتي بُغْدادْ وجعلني لا أنام، إذ تسب آخر الليل رجلين تراهما فوق الدولاب بصفة دائمة، ينام أحدهما بكامل عريه على بطنه يحك نفسه في الأرض ويناديها بذراعيه بينما يعبث الثاني بأعضائه من فتحة جلبابه الجانبية وناظرا لها، كانت تشتمهما بأسمائهما فيتعمدان التلاعب عرايا أمامها كالثعابين لإهانتها. لا يجيئون إلا في الليل منذ غاب عِزْ الرّجَالْ، تعلم أنهم يخافونه فتوقظني بصوت عال يسمعه من بالخارج محدقة في الجدار:

ــ "اصحى يا عِزْ الرّجَالْ شوف ولاد الزواني دول عاوزين إيه.. إصحى!"

أقوم مفزوعا. أقول إنني يونس يا جدة، فتقول إنها تعلم، وإنها لم تجن، وتأمرني أن أتنصت على الجدار فأجد الدهس قد خف والحديث قد انقطع . لا يخافون إلا منه. يطير النوم ويحل الخوف فتدخلني في حكايات تتشعب وتتفرع وتتلاقى وتتلاطم، تحدثني عن أنفاق وسراديب بلا خرائط ولا مفاتيح وبيوت كانت مقابر وكنائس كانت معابد فصارت مساجد وخرابات كانت قصورا وبحيرات كانت أنهارا ثم أصبحت مساقي، تدخلني في أزمنة سحيقة وتواريخ غريبة فتقابلني بشطار وأمراء وتجار وأولياء وأنبياء ثم تعود فتصل الحالي بالماضي والبعيد بالقريب ويلتقي الأمير بالغفير والذي شرق بالذي غرب فلا أستطيع أن أتبين شيئا محددا منها عن خالي عز الرجال، فيما يخامرني يقين أنها وحدها ــ جدتي بُغْدادْ ــ تلك التي تعلم ليس فقط أين هو بل ومتأكدة من عودته المفاجئة محملا بالخيرات والبضائع والفلوس والزوجات والأطفال فيسألها عن العشاء.

امتنعت الجدة بُغْدادْ عن التدخل في شئون الدار منذ غاب خالي عز،جلست على فروتها النظيفة بالخارج تحت شباكها، تفيض على الناس بخبرتها القديمة في علاج التعنية واستثقال التبرز، ببيضة مقلية في الزيت ومخلوطة بتراب الفرن الناعم،فتتخشن الأمعاء وتنضبط الرغبة

. وصفت ورق الجوافة المغلي للكحة ودهنت الصدر والظهر بالزيت الدافئ ولفته بورق الجرائد القديمة، أوصت بورق الزربيح وعنب الذئب ولبن الماعز لالتهابات اللسان عـن الرضـع وعالجت الكرفة بنصف ليمونة تقرأ عليها بعض القراءات ثم تتفل فيها ثم تدعك بهـا الـذقن والشفاه فتختفي الكرفة في ثلاثة أيام وقصدها الناس لعلاج طرفة العـين بـالحجر الأخـضر والمحارة، وعالجت الخضة وسنط الوجه ببيضة السبت، تضع البيضة في شق بالحائط يفـتح جهة الشرق بعد أن تضع في فتحة صغيرة بها سبع حبات من القمـح وتتلـو عليهـا بعـض التعاويذ مخاطبة القمر على سطح الدار أو في الخلاء ليلة أربعة عشر ثم تقول : الله الشافي، يخف السنط بعد شهر إن لم يشرب البيضة ثعبان أو عِرْسَة فتعيد المحاولـة، واسـتخرجت الشمس بعد الغروب من رؤوس المصدوعين بحزام من صوف تلفه حـول الـرأس وتـضغط بمفتاح من حديد ، ثم تفك الحزام وترش الجبهة بالماء المملح فيزول الصداع وتشد الأذنـين حتى تطقطق وتعض بسنتيها الأماميتين جلد الجبهة لتلتم الرأس بعد أن فتحتها الشمس وتأمر بعد ذلك بالنوم في الدهاليز بلا إضاءة وكوب شاي ثقيل أو فص من الأفيون تحت الضرس .

رقدت الجدة بُغْدادْ بسلام هذا المساء وبدا حديثها رائقا وصافيا وأوصت فلا يفتح قـواديس الحناء سوى عِزْ الرّجَالْ، قالت كلاما كثيرا كأنه هذيان،حتى أنني نمت، دون أن أعي كل مـا قالته وحين قمت مفزوعا على صراخها المفاجئ، كانت تتألم واكتشفت أنها نسيت قالب الطوب على النار طويلا ولفته في خرقتها القديمة ووضعته بين فخذيها،لم تشعر بالألم قدر ما أحـست برائحة لحمها يحترق، صرخت فقمت من نومي واقفا وقد احترقـت أحـشاؤها المـدلاة مـن الرحم. ظلت في حجرتها رافضة دخول الطبيب أو المزين وبدت صارمة حتى وملامح المـوت الأخيرة تسيطر على وجهها، مثلما رفضت طول عمرها أن يطّلِعَ عليها أحد حتى هـانم فـودة الداية أوقفتها بالخارج حتى ولدت جدتي قِشْطَة، لتربط السرة بفتلة من التيل وتشق العين في اليوم الثالث وترش الملح في السابع. فاضت الروح وهى جالسة مفتوحـة العينـين دون أن تقول الكثير عن خالي عِزْ الرّجَالْ، كانت مفتوحة العينين كأنها تراقب ما يحـدث حتـى أن زاد المال المغسلة ارتبكت وهى تنزع عنها ثيابها وتركتها ساعة أخـرى قبـل أن تخـرج زوج الخلخال الفضة من رجليها النحيفتين.

(١٦)

كان الوقت ليلا وأنا أتمشى دون هدف في الخليفة المأمون، مقررا للمرة الأولى عدم العودة لمدينة المغتربين وملتذا بالبرودة الخفيفة وأعمدة الشارع المضاءة واحتكاك العجلات الهادرة بالإسفلت. كان جامع جمال عبد الناصر مضاء فراودتني الهواجس أنه بالداخل، يقف داخل صندوق زجاجي كبير، بارز الصدر متوجا بإكليل الصفصاف وزنابق الهوك كأنما طلع لتوه من النهر، تنزل منه قطرات المياه وهو يبتسم، خطر لي أنه بالداخل فعلا وأنه سينادى فيما لو دققت النظر من بين زخارف النوافذ المغلقة ليأخذني للنهر الكبير . مررت أكثر من مرة على وزارة الدفاع والفنية العسكرية ومدرسة المساحة العسكرية ومستشفي عين شمس التخصصي تحت الإنشاء وكلية التجارة وجامعة عين شمس ونفق الخليفة المأمون والعباسية وجراج السيارات الخالي والمعهد الفني للقوات المسلحة،و فيما كانت مدينة الطلبة بمبانيها العشرة تفتح على الخليفة المأمون وشارع الجامعة، كان مترو مصر الجديدة ومنشية الصدر ببيوتها البالية والقبيحة يحيطانها من الخلف.

أمر أمام المدينة ولا أدخل، ندرت السيارات المارقة وشح ضوء الأعمدة بفعل الضباب، فتراءى أمامي الولد غَزّاوِى مادا يده في الضباب ــ كما يجئ في الحلم ــ وكلما سلمت عليه فاجأتني راحته التي يحاول أن يحتوى بها كفي بود وحنو خالية من الأصابع سوى نصف إبهام، يفجعني الاكتشاف فلا أعرف كيف أتكلم،أقول له أوحشتني كثيرا يا غَزّاوِى فينظر إلى متأثرا كما كان ينظر لأمه فاطمة ويبكى بينما صرة الغذاء في يده وبقايا كائناته الطينية على واجهة الدار توشك أن تتبعه، لم يعد للعب معنى بدون غَزّاوِى، لعبنا العصفور في أول الدرب لكننا أنهينا اللعب حين أطلت خيوله وأحصنته الطينية من واجهة الدار، لعبنا لعبة الحقل فقسمنا الأرض وخططنا الحدود وشققنا القنوات وجلبنا المياه من الترعة في أكواز وصببناها في فم القناة، روينا وزرعنا وحصدنا واختلفنا بشأن العيال والميراث والنساء لأنه لم يكن معنا، اختصمنا وافترقنا وطاردنا بعضنا وسط الحقول والمواشى، تسابقنا وتلابطنا ولعبنا السيجة والتحطيب لكنه كان لعبا بائخا وكنا نتلفت لعله يعود بصرته التي بها الغذاء فيطوحها في الهواء ويستأنف معنا اللعب، بعدما حطمت أمه فجأة كائناته الطينية في جنون وصرخت:

ــ "كبرت يا غَزّاوِى.. كفاية لعب لحد كده.. ندور بقى على أكل عيشنا"

لم يكن غَزّاوِى وحيدها يلعب بالطمي، كان يعيش بشروده الدائم وقلة كلامه سارحا في مملكته الجميلة صانعا بصبر لا ينفد أحصنة وجمالا وطيورا من طمي ناعمة وملساء، يتركها في كوة كبيرة بالحائط في الظل أياما وأسابيع حتى تصبح صلبة وناعمة ومحتفظة بلون الطمي، ساحرة ينقصها نفخ الروح لتبث فيها الحياة وتنطلق: ديوكا منفوشة العرف توشك أن تؤذن وخيولا جامحة تصهل وأبقارا في أسراب ترعى وحماما في أزواج وأسودا وفهودا

وغزلانا، يسرح في التماثيل المرصوصة كأنه يحدثها، نطلبه للجري معنا واللعب فلا يفعل حتى يكتمل الكائن في يده، وحين يجيء لا يلفت انتباهه سوى بذرة قطن محلوج تصلح عينا لحصان، أو نواة بلح منحنية يجعلها قرنا لغزال أو سنبلة من قمح أخضر يجعلها ذيلا لحصان يثب، تدهشنا مملكته وحياته، فما الذي حدث حتى تحطم أمه التماثيل؟ بكى بحرقة وهو ينقذ كلابه الرابضة وأسوده ونسوته المتشحات بالسواد معصوبات الرأس وغزلانه الشاردة كبيرة الحجم إلى قمة الدار بعيدا عن تحطيم أمه الجنوني فبدت مملكته المضطربة وكائناته المذعورة أكثر روعة وهى تطل بقرونها في الشارع كأنها ستقفز. ناولته أمه صرة الغذاء ودفعته في ظهره إلى مصنع الكتان بينما يتلفت باكيا نحو أحصنة الطمي المطلة. تركنا اللعب بأحصنة الحطب وامتنعنا عن دفع الأطواق الحديدية في الشوارع حين سمعنا الصوات، انصرف عيال درب الشيشيني عن الدّحْ بالشقافة وتركت بنات داير الناحية الحجْلة والجبّةً بالزلط والأولى بعلبة الورنيش المملوءة بالتراب وهرع العيال الكبار الذين كانوا يلعبون جمال الملح والكلب الحيران والنطة وعنكب شد واركب وصلّحْ عندما امتلأ درب الخارجة بالنسوة، كان غَـزّاوِى قد ألقم الكسارة يده لتطحن ذراعه في اليوم الأول لخروجه لأكل لقمة العيش ورقد في المستشفي الأميري ثلاثة أيام لكنه لم يعد إلى مملكته، لم نلعب هذا المساء شفت القمر ولم تنزع أم غَزّاوِى هدومها السوداء أو تفك رأسها المعصوبة فيما ظلت طيوره وأحصنته ونسوته المتشحات بالسواد على سطح الدار تبكى وتومئ برءوسها في دربنا الضيق.

للمرة العشرين أمر أمام المدينة ولا أدخل، كأنما كلمة مريم العابرة طبعت في رأسي، قالت أنها لا تدرى لماذا تحس بكآبة كلما مرت بمدينة للطلبة أو معسكر لجنود أو ملجأ لأيتام، كانت كلمتها عابرة بالفعل وربما لم تكن تعرف لحظتها أننى أقيم بمدينة المغتربين. كنت سعيدا وأنا أتمشى في الخليفة المأمون خارج أسوار المدينة لا يؤلمني البرد، أراها سجنا كبيرا به عشرة مبان. أذهلتني في البداية تلك النظافة والمساحة المترامية من الحدائق بين المباني من أشجار الفيكاس غير المقلم والنجيلة الخضراء وأحواض الزهور والطرقات المرصوفة، فلم أنتبه لذلك السور الخارجي والحرس النائمين على الباب،أمامهم أسلحتهم، لا يفتحون لأحد بعد العاشرة، أربعة أعوام مرت دون أنتبه لأنها ليست سوى معسكر لشباب ذكور مغتربين، حتى قالت مريم أنت تقطع فرعا من منبته وتضعه في بيئة أخرى، نظيفة ومنظمة ومصنوعة بإتقان يتوفر فيها كل شيء، لكنها بيئة مصنوعة، صوبة زراعية ينقصها كل شيء أسرى وجميل . كيف عبرت مريم الحرايرى بهذه البساطة والصدق عما أحس به دون أن أعرف له وصفا. رأت الدمرداش في الصباح كما لا أراها . قالت إنها تكره هذا المستشفي فكان جهما وكئيبا بطوابقه الستة. كيف من أول وهلة يأتي حكمها مغايرا للآخرين ومستقلا ومنطقيا في الوقت ذاته. كيف لم أفكر أن الأمر ليس أكلا ونوما ومذاكرة، هناك أشياء أخرى كثيرة وبسيطة تنقصنا في هذه المدينة، لا طفلا نرى ولا أسرة ولا امرأة. صرت أفضل النوم أحيانا بلا عشاء على أن آكل في مطعم

المدينة، أتسوق من سوق العباسية وجبات لفرد واحد أطهوها بنفسي، تقولها لي مريم لكي أكسر هذا النظام الصارم، فول السبت والاثنين والجمعة بالزيت والبيض وكيس مصر للألبان، وجبن ومربى الأحد والثلاثاء والخميس . صرت أنام جوعانا وسعيدا ورأيت شوارع منشية الصدر المتربة جميلة تشغي بالحركة والصخب والحياة، أتجول في الشوارع ببيوتها المتهدمة سعيدا برجال يصطحبون نساءهم وأطفالهم، أتوقف أمام كشك سجائر مفتوح به بنت صغيرة بجلباب منزلي أو محل لآلة كاتبة أو صيدلية.

هل كنت أحيا قبل أن تقول مريم الحرايرى كلماتها البسيطة والتلقائية؟ سألتني إن كنت أشعر بمدينة المغتربين مختلفة بعد الظهر عنها في الصباح، تذكرت أن موظفات الإدارة وشئون الطلبة والعمال ينشرون صخبا ما ولونا مختلفا نفقده بعد الظهر، نسوة قلائل لكنهن يمنحن اليوم سحرا والمدينة الجهمة لونا ورديا حتى عاملات المغسل والكى وعمال الحدائق يرشون المياه فتبدو المدينة مشرقة. ما الذي فعلته بي مريم كي أتعجل القيام من النوم وكي الملابس لأتجه للمستشفي، ضاربا بعيني في الطرقات بحثا عنها؟ تمعنت في أم كلثوم واندمجت في أغنيات نجاة وفايزة ومحمد قنديل وأعدت وحدى اكتشاف معان جديدة حين دندنت بالألحان فكتبت الأغانى على هوامش الكتب. رسخت رائحة في أنفي كعبق الليمون في حبات العرق حول طوق البلوزة البسيطة والرقيقة، رائحة تجذبنى إليها كما ينجذب المريد لشيخه، تقودنى ولا أدرى كنهها للطرقات التى مرت بها، فأفتح قاعات الدرس حيث تجلس وأدخل . كان باستطاعتى أن أحدد المقاعد التى جلست عليها والأشياء التى لمستها دون أن أعرف خط سيرها، وكانت تستغرب وتصرخ كما كان يصيح خالى عِزْ الرّجَالْ متعجبا حين أجوب الترع والغيطان والمدقات خلفه حتى أعثر عليه:

ـ "عرفت مكانى ازاى!!"

فهل كان وهما ما رأيته عند شريط القطار؟ حين تكاثفت الرائحة من وسط عيدان الذرة فصرت أتشمم ككلب حتى رأيت أشلاءه متناثرة على أحجار البازلت ولم يصدقني أحد، ثم رأيته في حظيرة الدجاج جالسا ينظر ولا يتكلم فسقطت صفيحة الماء من يدي. منعوني من دخول الحظيرة والأماكن المظلمة وعملت جدتي بُغْدادْ طاسة الخضة، لكنني ظللت أنتظره مضيئا ومبتسما يحمل عروسه أمامه على حصان جامح،لكنه لا يجيء.

(١٧)

لماذا يصيبنا الفزع كلما مررنا به؟ نغير الطريق إن لم نمر في أدب وصـمت، وإذا جئنـا أمامه قبلنا يده في صمت:

ـ "إزيك يا سيدي بِخيت"

كان جالسا على مصطبة أمام داره خلفه ذلك التاريخ الغامض والمفزع، متكئا علـى عـصاه كأسد عجوز ومتعب، توشك عصافير صدغه بعروقه النافرة والملتوية أن تطير فزعا لـولا أن يلحقها فيفتح علبة الدخان ليلف سيجارة أو يضع فص الأفيون تحت ضرسه:

ـ "إنتم ولاد مين؟"

لا ترن أسماء العيال والآباء أو الفروع في أذنه، يجذب القلة ويطلب الجد بالتحديد، يقطب حاجبيه محاولا أن يسترجع ـ عبر تأبيدة وشيخوخة ودار بلا زوجة أو ولد ـ أسامي الجدود والأصول، هل سيتذكر؟ يرمى قليلا من الماء قبل أن تلمس القلة شفته ويرفعها، ينزل الماء في فمه المفتوح فلا تتحرك سوى عضلات الرقبة والبلعوم، تتجول عيناه كنمس في المارة غيـر عابئ بالماء المتساقط على صدره. ينزل الرجال عن دوابهم ويحيونه وتنزع النسوة شباشبهن ويغطين وجوههن المكشوفة بالطرح ويلتزمن الجانب البعيد للسكة. ركن القلة بعنـف علـى المصطبة كمن تذكر، صرخ وهو يتجشأ:

ـ "ستكم بُغْدادْ؟!.. آه يا أولاد الكلب يا وساخة"

انطلقت وخالي عز كالريح فهل كان يجرى خلفنا؟ كان بخيت قويا يأكل الخروف وحـده، ويضرب الرجل بالكف فيتبرز من شدة الألم، ويستسهل فيحمل حمارا بنقلة ردم ليعـدى قنـاة فلا يلف على المعدية البعيدة. لا يشرب الشاي إلا في جماجم ألـد أعدائـه بعـد أن يطهرهـا بالمسك والزعفران، يحبس ضحاياه حتى يموتوا في سرداب قديم من عهد المقوقس يبدأ مـن أسفل دكته الجالس عليها في دهليز داره ويمتد حتى جامع الأربعين. تاجر في الأفيـون وزرع الحشيش والداتوره دون أن تملأ عينه حكومة أو مركز. وسط حقل الحشيش استدعاه المأمور وسأله:

ـ "إيه اللى انت زارعه ده؟"

مد يده بفتور، سلم على الواقفين وأشار:

ـ "قصدك لا مؤاخذة العفش ده؟.. هو اللى بيطلع كده لوحده.. شيطانى يعنى"

ـ "ده خشخاش يا بِخيت"

ـ "اسمه عفش يا بيه بيجى لنا مع الميه.. و نرجع نقلعه وننضف الأرض"

ـ "واشمعنى العفش ده ما جاش إلا فغيطك؟"

ـ "مش مصدقنى.. أورى سيادتك غيطان كتير فيها كده"

تبعه المأمور والعساكر والناس فيما أشار بحاجبه لشوقي الأسود وأخيه عبد العزيز فقطعوا الخشخاش المزهر ورموه في الترعة. عاد المأمور فضحك بخيت ضحكة طويلة، شامتة وساخرة،فسحب المأمور عساكره ولم يعد للقرية.

ـ "ستكم بُغْدادْ يا ولاد الكلب؟!"

كانت جدتي بُغْدادْ قد صارت عدوه الأول منذ احتفظت بماء غسل جدي عبد النور في جرتين ورفضت أن تدلقهما قبل أن يموت قاتله. وكان جدى قد قتل وطفت جثته بلا رأس بعد أسبوع في ساقية الزيدانية فهجرت وامتنعت عن جلب الماء وسميت ساقية عبد النور. ذهبت جدتي بغداد بجاموستها في يد وابنتها قِشْطَة الصغيرة في يد إلى على أبو بهايم. كانت هدومه مهلهلة وجسمه البرونزي صغيرا كقرموط البركة، يحرس البهائم للتجار ويسحبها من السوق إلى الزرائب والمرابط نظير لقمة أو كوب شاي أو سيجارة لف. سألته إن كان بخيت هو قاتل زوجها فأومأ برأسه، وأشار إلى مدخل عزبة أبو شارع :

ـ "الاسم طوبة والفاعل أمشير"

نقضت على يده تقبلها وتبكى:

ـ "سقت عليك النبي يا على يا خويا تشوف لي حل.. عبد النور كان راجلي وأبو بنتي.. خد الجاموسة.. خد بنتي.. خد نور عيني بس أشفي غليلي"

فأخذ قِشْطَة تحت إبطه ودفع بحبل الجاموسة لجدتي وأقسم ـ هو الذي لا يتكلم كثيرا ـ أن يقتل لها رجلين بلا مقابل! هكذا لله ومن أجل هذه الطفلة اليتيمة التي ظلت تتبول على نفسها حتى تزوجت فأنجبت أمي رَحْمَة. غير أنها لم تكن ترغب أن يقول لها ذلك، فضفضت له كرجل ليس أكثر، لعله يدبرها كيف تشفي غليلها وترى يوما في قاتل جدي عبد النور. لم تكن جدتي بغداد تتصور أن يقدم على أبو بهايم على فعل شيء، لكنه فعلها وأوفي بما وعد، فأقيم في وقت واحد مأتم لاثنين في عزبة أبو شارع وفرح زغردت فيه زغرودتيها الوحيدتين في حياتها: الأولى وهى تسكب في ترعة الفلْفلَة مياه غسل جدي عبد النور المعبأة في جرتين، والأخيرة وهى تدفع قِشْطَة اليتيمة قبل البلوغ لزوجها على أبو بهايم.

من يومها وجدتي بغداد تمر عكس كل نساء القرية مرفوعة الرأس أمام دار بخيت، لا تدارى وجهها بطرحة أو تخلع مداسها أو تتخذ الجانب البعيد من الطريق دون أن يجرؤ على مس طرفها، أو يفكر حتى مجرد التفكير في أن يكرر ما فعله بجدي عبد النور حين مر أمامه راكبا حماره ولم ينزل فجلده خمسين جلدة، وحين عاد ومر بالصدفة أمامه، كان راكبا فوق حمل ضخم من البرسيم ومحتضنا أمامه الطنبور، رآه فارتبك، لم يسعفه الوقت للنزول ولم يتمكن حتى من إيقاف الحمار، فألقى السلام معتذرا:

ـ "هش.. أقف هش.. دستور يا عم بخيت.. سلام عليكم"

لم يرد بخيت السلام ولم يقل دستورك معك، وقتل جدي في نفس الليلة.

بدا أن على أبو بهايم أراد جدتي قشطة إلى كومه حين أقسم ورد حبل الجاموسة لجدتي بغداد. ظل سارحا خلف البهائم، يحمل نصلا صغيرا جلس تحت صفصافة يسنه ضحى ويلمعه ضحى آخر ويدببه جمعة، حتى تناهى في الصغر واللمعان والحدة، وانطلق إلى عزبة أبو شارع، ليتعجب الناس لموت شوقي الأسود وأخيه عبد العزيز وليس بهما جرح. استغرب الدكتور حسين كامل وهو يقلب الجثتين ثم كتب في التصريح:

ــ "هبوط في الدورة الدموية والقلب.. هبوط في الدورة الدموية والقلب تانى"

بموت شوقي الأسود وأخيه عبد العزيز، قطعت ذراعي بخيت الطويلتين، فاضطر لفعل جريمته التالية بنفسه وأخذ التأبيدة.

احتارت جدتي قشطة في أمر زوجها على الذي ظل كاتما ــ حتى مات ــ كيف أدخل نصله الرفيع إلى قلب قاتلي أبيها فانفقأ كفقاعة، ليختلط سبب الوفاة على الدكتور حسين كامل . كان يتجنب الخوض فيه وكانت تلح فيقول رافعا سبابته لأعلى "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى" حتى أنها كادت تصدق كلام الدكتور حسين كامل. كان حانيا كأب، رقيقا كنسيم الصبح، توشك دموعه أن تطل من عينيه. كأنه كان يستشرف النهاية حين لزم الجامع وسدد ديونه وكسا التواضع والسكينة وجهه وبكى ثلاثة أيام وقرأ القرآن حتى تلا "قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له" لفظ أنفاسه في هدوء.

(١٨)

سألتني مريم الحرايري هل يمكن أن يترك الرجل بمحض إرادته عالمه، ليذوب بحب بين النساء، حتى أن البنت من سن أحفاده تناديه وترسله مرات عديدة:

ــ "القميص يا حسين.. القميص وضيق جلبية أمي على قدي"

ــ "حاضر يا عسل"

قلت إنه كان يفعل كل ذلك في وقت واحد وبسعادة: يجلس على ماكينة الخياطة، يسمع الأخبار وينقلها، يرشح العرائس ويزكى العرسان، يقنع الكارهة لزوجها والغاضبة بالعودة، يدلى بآرائه في أفضل أنواع الكحل ويستفيض في طريقة تحويجه حتى نَعُمَ صوته واهتزت أردافه أثناء المشي دون قصد . تتسخ هدومه أول ما تتسخ من هذه المنطقة وتبلى منها لطول قعوده مع النسوة أمام الدور، مخرجا من سيالته المنتفخة سوتيانا أو اثنين من فوائض قماش التفصيل غالبا، يتعبنه في الفصال وينتهين بأخذها بالثمن الذي يقررنه بحجة العشم والمحبة فيقوم راضيا. لم أعد أشعر بالخجل أو الضيق حين يناديني بود وهو يمد الخطى فتهتز أردافه مكررا بصوته النسائي:

ــ "يونس يا بن رَحْمَة، يسعدك ربنا ويعليك كمان وكمان يا وحداني يابن الوحدانى، قادر يا كريم لجل خاطر ستك قِشْطَة وبُغْدادْ، ألا ازيهم دلوقت يا حبة عيني؟"

يمد يده ليربت ظهري كأنه يرقيني، توشك دموع الصدق أن تطفر من عينه مبتسما ومتأثرا، يصلى على النبي ويسمى باسم الله لأنني صرت أطول منه بقميصي الفاتح وبنطلوني الأسود، لم أعد ــ على أي نحو ــ أشعر بخجل عندما يناديني هو كثير الكلام باسمي القديم نوسة، إذ سرعان ما يصحح لنفسه زلة اللسان والسهو فيسلم على ويحتضنني ثم يزغرد معتذرا:

ــ "عقبال فرحك يا نوسة يوه يا اسمك إيه يا يونس"

صرت أطول منه أنا الذي تبولت على الحائط في درب الخارجة، كأنه أمس، فصرخت نسوة الدرب وجذبتني أمي للداخل ونزع هو فردة القرط اليمنى من أذني ودسها في سيالته، زغرت له جدتي بُغْدادْ فذكرها بالنذر واعتبرها حقه الأخير لخياطته على عجل أول جلباب صبياني لي قبل أن يخيط لي حسين حميدة بعد ذلك، ساعد النسوة في الطبيخ، ونادى فتحي المزين لقص شعري الطويل وختاني، بدا منظري غريبا فبكيت وانزويت في جانب الدار طويلا وفوق السطح وأكلت الطمي فأشار بذهابي للكتاب.

كان حانيا وأليفا، يقوم من هنا ليجلس هناك، يلتف حوله النسوة، يطلبن منه خياطة الهدوم والألبسة والسوتيانات والقمصان التيل، يترك له الرجال ــ دون زعل ــ المجلس مع النسوة مجتمعات فيأخذن راحتهن، يقسن الهدوم ويتمشين أمامه ويستدرن وهن يتحسسن أجسادهن في زهو ليرى المقاس، يزغرد كامرأة حين تصيب نظرته فلا يضطر للتضييق ببنسة أو التوسيع بفك ثنية. ينتقى من الألوان ما يبرز الجمال والحسن، يعلم وحده المقاسات بالنظرة ويضع في اعتباره اتساع الحمل وفتحات الرضاعة ومجيء خراط البنات. يهل في الشارع فيصفق بيده وينادى بصوته الرفيع بأسامي الأبناء، ثم الأمهات:

ــ "أم نوسة.. رحمة.. بت يا رحمة.. قميصين تيل بكرانيش.. ينفعوكي؟"

ينتقل بماكينته لدور العرائس بالشهر لخياطة ثياب العرس وقمصانه، يأكل ويشرب وينام بريئا كأنما خراط البنات قد خرطه أنثى جميلة، تولدت القناعة لدى الرجال بعدم الخوف منه على النسوة، عدا عبْد الوَهابْ غُصْن الذي كان يتعمد إهانته ويشتمه:

ــ "روّح يا حسيني البس جلبية بسفرة وكرانيش، يا مره!"

كأنما يتوق بالفعل أن يلبس جلبابا بسفرة، يقيس الجلباب على نفسه ليرى النسوة جمال الثوب على عوده الفارع حين ينزع طاقيته أو ينتر فوقها الطرحة ثم يزغرد.

كانت شتيمة عبْد الوَهابْ غُصْن المتسائلة جارحة ومؤلمة وهو يشير نحوي ويعرض على الجدة بُغْدادْ الزواج من أمي حتى لا يضيع مستقبلي:

ــ "هي المره بتربي عجل ويشيل الناف يا ست بُغْدادْ؟"

عدّد الرجال الذين ربّتْهمْ النساء ففشلوا وصاروا مضحكة، وعجولا لا تشيل مسئولية، وأولهم حسين بيبرس. رفضت أمي رَحْمَةَ الزواج وتعهدت بتربيتنا مستنكرة ــ وهى تشيح بيدها ــ أن يكون هدف عبْد الوَهابْ غُصْنْ هو تربية ولدها:

ــ "يا مربى في غير ولدك.. يا زارع في غير أرضك"

تساءلت مريم الحرايرى كأنها لا تنتظر إجابة: هل قسم الله ــ حين صور النسوة ــ غريزة الأمومة بالتساوي بينهن؟ وترنمت كأنما تحلم:

ــ "أبى.. لا مزيد،

أريد أبى عند بوابة القصر،

فوق حصان الحقيقة منتصبا من جديد،

ولا أطلب المستحيل.. لكنه العدل"

أرادت الجلوس ليس أكثر في حجرته في نهاية الممشى الخاص المظلل بأفرع العنب، تراه وهو يمسك صهاليل النار ويضعها أعلى الشيشة، يأخذ نفسا عميقا ويزفر الدخان في سرحان وهدوء، تضع رأسها في حجره فيشب على ركبتيه والشيشة في فمه وهو يسند رأسها بيد ويفتح دولابا بالحائط، يخرج بيده الأخرى قطعا من المشبك ويعطيها لها، يصب كوبا من الشاي بالقرنفل زائد السكر، ينفخ فيه بفمه كي يبرد قبل أن تشربه ثم تنام على سريره غير المنظم حتى إذا ما جاءت أمها لتأخذها صرخت وبكت وصممت أن تبقى معه. أرادت أن تسيطر عليها هذه اللحظات رغم قلتها،أن تستعيد حكاياته التي حكاها لها ــ وهو يبكى ــ ربما ليواسى نفسه أولا قبل أن يهدهدها لتنام على صدره، دون أن يعلم أن رأسها الصغير سيحتفظ بها. تخرج من الكلية الحربية، فداعبت كلمات الزعيم أوتار قلبه، وأيقظت أحلامه الفائرة خطاباته عن الوحدة وخطواته الجادة نحو قطر واحد من إقليمين شمالي وجنوبى، هل قرب لها التشبيه بالملك مينا العظيم، قال يا مريم إن الزمن عنده يوشك أن لا يغادر السبت الأول من فبراير ٥٨، ميلاده الحقيقي يوم ولد إعلان الوحدة، وأصبح الحكم رئاسيا ديمقراطيا، يتولى السلطة التنفيذية رئيس الدولة ويعاونه وزراء بعينهم، يكونون مسئولين أمامه، ويتولى السلطة التشريعية مجلس تشريعي واحد ويكون لها علم واحد يظلل شعبا واحدا وجيشا واحدا في وحدة يتساوى فيها أبناؤها في الحقوق والواجبات. قال يا مريم إن الناس في الشوارع كانت تهتف بفرح حقيقي بحياة ناصر وتدخل اللجان في طوفان لتقول نعم في الاستفتاء على الوحدة وعلى رئيس الجمهورية ، ثم يبحثون عن صوت العرب ليسمعوا أخبارا جديدة عن الوحدة وعن الزعيم، ولا يمكن أن تنسى دمشق وحمص وحماه بشوارعها يوم الجمعة ذلك، إذ لم يكن للأمور أن تتطور على هذا النحو سوى في حلم، فيذهب سيد الحرايرى مع زملائه في السلاح للخدمة في جنوب الجمهورية العربية المتحدة، بالتحديد في القاهرة . لم يكن يصدق نفسه –

هو أو زملاؤه – أن من حقه منذ الآن أن يستأجر سكنا أو يشترى بيتا، أو يتزوج أو يتنقل، فالقطر كله بلده.

كانت الشوارع مبهجة وهو يرتدى بدلته الميري ويهبط سلالم العمارة، نازلا في الصباح ثم عائدا بعد الظهر، كان الجميع يلقون التحية ويبتسمون، كأنما بهجة تعم الجميع، وكان سيد الحرايري بن تاجر الحرير في مصياف وصاحب الأراضي الزراعية التي تنام على سفحي جبلين في وادي العيون، يرى أن ما حدث كان لابد أن يحدث ربما من آلاف السنين، فقد حمله جاره المصري إلى كوبري القبة حين صرخ من آلام بالكلى وظل يطمئن عليه لأيام متتالية وابتسمت له ابنته ذات الستة عشر عاما بلبس المدارس في خجل وهى تهبط السلم، وجرت في داخله مشاعر لا ينساها حين بكت أمها لبكائه المؤلم وقالت لزوجها إن في بكاء هذا الولد نبرة حزينة تقطع القلب، فطلب البنت للزواج، كان دفئا من نوع غامر وخاص لم يشعره من قبل ولا من بعد، فمن الذي أيقظه من هذا الحلم الجميل ولم يعده إليه؟ من الذي قدّر له أن يعيش تائها ؟ عازفا عن كل شيء صامتا ويائسا؟ لا شيء فيه سوى عينين تنظران باستغراب للأشياء كأنما يراها لأول مرة، يجاهد كي يتذكر ولا يبتسم إلا نادرا.

أحب كل شيء في القاهرة، تغاضى عن مضايقات الغيورين بجعله دائما في الاحتياط وإشعاره دائما بأنه في مرتبة تالية، لم يحزن لأنه كان يرى الحلم أرحب من أفق هؤلاء، كان يعلم أن ضيق الأفق لابد أن ينتهي بمرور الوقت ورسوخ التجربة وعلى الكل أن يسمو بحجم الحدث. كان يتابع أخبار الوحدة، ينتظر أحاديث الزعيم بشغف عن الوحدة، ابتهل من قلبه حين أرسل عبد الحكيم عامر إلى سوريا أن تزول أسباب المعارضة المتزايدة للوحدة، و صدم في ٢٨ سبتمبر بما أعلنته مجموعة من ضباط الجيش السوري انفصالهم عن الجمهورية العربية المتحدة وقبضت على عامر الحاكم الإداري وأرسلته في طائرة للقاهرة، ما الذي يحدث؟ هل فشل الرجل في التوصل إلى وسيلة ملائمة تعينه على تسيير دفة الأمور؟

أسرته إنسانية الزعيم المطعون حين لم يعف نفسه من الخطأ ورفض أن تطلق الكتيبة طلقة واحدة أو يلقى القبض على دعاة الانفصال ليفرض الوحدة بالقوة فبدا إنسانا مجروحا لكنه متماسك، أرسل خطابا شخصيا للزعيم قال إنه بكى كما تبكى النساء لانهيار الحلم، كانت دموعه على الخطاب، لم يكن يتوقع أن يرد الزعيم عليه وبخط يده، قال له أشكر لك وطنيتك وغيرتك، جرحى أكبر من جرحك فتماسك. أخرج الخطاب من جيبه، قرأه لمريم وهى ترقد على صدره، أراه لها ثم وضعه بالقرب من قلبه.

تعافي الزعيم ومرت الأزمة ولم يتعاف سيد الحرايرى، تحطم الحلم كآنية من زجاج، آثر الخلوة وبدا في حجرته الصومعة كمن يضع قطنا في أذنيه، لا يسمع شيئا بالفعل، حتى أن تميما احترق وصرخ فامتلأ البيت بالناس من كل ناحية ولم يسمع، حين علم ظل يبكى بلا دموع ثلاثة أيام حتى أنه لم يسمع أيضا فيها لوم زوجته التي حملت ابنتها وعادت إلى مصر.

ولدت مريم في إجازة للأسرة في سورية، وولد تميم في القاهرة عندما صدرت الأوامر لسيد الحرايرى وزملائه بالعودة إلى سوريا، نفذ الجميع إلا هو، ظل متخلفا حتى عام ثلاثة وستين فيما كان تميم يحبو ومريم البريئة كالعذراء تمرح.

كان يبحث عن سبب حقيقي لما حدث، أتكون طبقة الملاك والتجار ورجـال الأعمـال فـي سوريا وراء ذلك حين تأممت الشركات والبنوك وخفضت الأرض الزراعية ؟ كـان الحرايـرى يخشى أن يحذو البرجوازيون المصريون حذو السوريين ،لم يهدأ حتى صـادر عبـد الناصـر ممتلكات ألف عائلة هي أغنى عائلات مصر، ازداد حبه للرجل حـين احـتفظ لمـصر بلقـب الجمهورية العربية المتحدة حتى بعد الانفصال. كان رفضه العودة إلى سوريا لأنه علم من رد الزعيم بخطه الشخصي على خطابه أن السوريين حين طالبوا بالوحدة طلب منهم أن يكـون اتحادا فيدراليا يتمتع بحرية الحركة على مدى فترة انتقالية لكنهم أصروا على الاندماج الكامل فأصر أن تحكم الجمهورية من القاهرة .مرت سنوات الوحدة الثلاث، وعانى الـسوريون مـن الجفاف وقلة الأمطار وانهيار المحاصيل، فعاد الحرايرى لزيارة أهله في سورية.

أُخذَ الحرايرى من مطار دمشق متهما بالخيانة والتآمر ومسرحا مـن الخدمـة، ووصـلت الأسرة وادي العيون، ربما كانت هذه بداية المتاعب والتقوقع داخل حجرته المهجورة في نهاية الممشى. بدأت العزلة من هنا، فشلت الزوجة في إخراجه من تبغ الشيشة وشـاي القرنفـل والقهوة المرة وكتبه الصغيرة وتأملاته، فشلت في إعادته منطلقا وصبوحا كما كان. كان الحلم قد تهشم بالفعل، لم يشعر بصراخ تميم والنار تحرقه، امتلأت الدار بالجيران من كل فج بينمـا هو لم يسمع شيئا، حتى لوم زوجته وطلبها العودة، أخذت مريم فحمل حقائبها حتى المطـار كمن لا يملك إرادته، كانت تبكى بالفعل ولا تعلم كيف سارت الأمور على هـذا النحـو، قالـت سنغادر ولا تعرف لماذا أصرت، كانت تنتظر أن يومئ برأسه أو يقول لا تذهبوا، كانت سننزل من الطائرة لكنه لم يقل، كمن سلبت إرادته،أقسمت أنه لم يكن سيد الحرايرى.

أهو الآن حي؟ هل تزوج؟ وهل أنجب لها أخوة لأب؟ هل يمكـن أن تعـرفهم يومـا مـا؟ انقطعت رسائله لها وإن لم تنقطع مواردها المالية، نفس المرتب، نفس شـهادات الاسـتثمار، تهشمت أحلامها، تباعدت الأم هي الأخرى، استحوذ عليها شرف وأنجبت بالاتفاق معه مـريم أخرى بديلة خالية من العقد والمشاكل، فمن يعيدها الآن لتنـام علـى صـدره، فـي حجرتـه الصومعة بنهاية البيت؟

(١٩)

حين استلقيت بجلبابي القديم تحت ظل البنسيانا الكبيرة ذات الورود الحمراء عديمة الرائحة في الحديقة، كنت قد استمتعت بالسير حافيا على بلاط نظيف وصعود إحدى عشر سُلّمة وهبوطها، تفضي إلى بهو فسيح يعلو دورا مدفونا به مطبخ تفوح منه رائحة التقلية وزفارة السمك ورائحة تحمير وجراج لسيارتين وحجرة للسيد رجب بحمام صغير، لم أكن أعلم إن كنت في حكاية من حكايات أبى أم أنني دخلت هنا بالفعل، انتظرت أنا المستلقي مازلت في ظل البنسيانا الضخمة أن تنفتح شبابيك الفيلا العلوية الزرقاء وتزاح الستائر وتطل الهانم في نسمات الصباح وزوجها الدكتور حسين كامل، يشيرا إليّ فأصعد هما اللذان لا ينجبان، يفرحان بي أنا الريفي هادئ الطباع الذي أحفظ سبعة وعشرين جزءا من القرآن حتى آخر سورة فُصّلَتْ وأؤدي الصلوات ولا أفعل الخطيئة، يطلان من الشرفة العليا وينادیان السيد رجب لإحضاري بينهم لنتناول الفطور ويسمحان لي بحضور جلساتهما الموسيقية في الحديقة المزينة بلمبات النيون المثبتة على أفرع الشجر، لأستمتع بالمواويل ومطالع الأغنيات بينما قريتنا في الجانب الآخر لترعة الفلْفلَة تغطس في ليل دامس، لا تضيئه سوى لمبات الجاز الصغيرة. أفقت على ألم في جسمي كضرب مبرح وعلامتين في خدي صنعهما سيخا حديد البوابة، كان السيد رجب قد جذبني من حديد البوابة وصرخ في فزع حين لم أشعر بكل هذا الضرب إلا كلسع ذباب أسفل شجرة الحور بساحة سيدي عبد الله، كنت مشغولا إن كان الفقراء سيدخلون الجنة بالفعل ــ كما قال أبى ــ قبل الأغنياء بنصف يوم وهو ما يعادل خمسمائة سنة وإن كان سليمان بن داود سيدخلها بعد دخولها الأنبياء بأربعين عاما بسبب الملك الذي آتاه الله في ممالك الإنس والجن والطير والهواء، بينما كان خدي ملتصقا بحديد البوابة، لم أبك إلا بعد أن جذبني السيد رجب وهو يصرخ فزعا،يتحسس أماكن الضرب في جسدي، بكيت فيما كان يربت ظهري أسفل البنسيانا في الحديقة متحسرا وداعيا بالشلل على يده قبل أن تمتد نحوي:

ــ "تنقطع إيدي.. ما بحسبش انت.. ما يجيش الضرب ده إلا فيك ؟"

أراحني تحت البنسيانا ففاجئني الظل الكثيف والنسمات المعبقة بالورد والياسمين، تحسس علامات الضرب في ظهري فلام نفسه، وعدني أن يدخلني في الأيام التي لا يأتي فيها الدكتور، لن يرشني بخرطوم المياه ويجعلني أتمدد في الحديقة وأضع وجهي على تلك الدرجات الرخامية الإحدى عشر التي تبث برودة في عز الحر. كان الدكتور لا ينجب، يعمل مديرا لمستشفى صدر العباسية، لا يجيء والهانم إلا في الأخمسة والجمع والأجازات، باشا أحمر الوجه تشي تجاعيد وجهه ورقبته بالعراقة والأصل. كانت السراية واسعة وساكتة، تنتشر أطقم الكراسي والصالونات في البهو الكبير بجدرانه المطلية بالأبيض الناصع ومائدة الطعام

المستديرة عليها مفرش أبيض، فيما فردت على الشبابيك الخضراء المفتوحة ستائر ملونة، توشك زهور البنسيانا بأفرعها الكثيفة أن تدخل وتصل أعراف الورد البلدي لجلسة الشبابيك. في البهو تماثيل صغيرة ودمى وأوان وفازات منقوشة، يقود السلم الداخلي بشكل مروحة لحجرة وحيدة بشرفة تقترب من مساحة الحجرة، مسقفة باللبلاب والعنب، تفتح شبابيكها في الجهات الأربع، بها سرير واحد مرتب يكفي بالكاد لاثنين، علي الكمدينو دب قطني وعروسة محلولة الشعر توشك أن تنطق ودولاب صغير من ثلاث ضلف وشماعة الدكتور الخشبية واقفة، عليها معطفه وملابسه المنزلية وروبه، أدهشني أن السراية على اتساعها ليس بها سوى غرفة نوم بسرير واحد. مال عليه السيد رجب وقال:

ــ "الواد ده بن الشيخ عبد الفتاح يونس.. اللي انت رجعت لأولاده الكشف.. الأسبوع اللي فات.. ربنا يديك طولة العمر مات تاني يوم"

ابتسم ولم يذكر أبى وسأل:

ــ "إنت اللى ستك بُغْدادْ؟"

أومأت برأسى، أدركت أن الذي كان يجلس على فروتها المفروشة أمام الباب ليكتب عنها كل ما تعالج به الناس ــ بدءا من الصداع وانتهاء بالعقم ــ لم يكن سواه، لم أصدق أن يذهب الدكتور حسين كامل ويجلس إلى جدتي بُغْدادْ، يسجل ما تقوله ويمحص ما فيه من جوانب سليمة، قالت مريم ببساطة: ما الغريب في ذلك؟ ما تفعله الجدة بُغْدادْ ليس ابتداعا، هو إرث قديم وخبرات متراكمة رسخت وبقيت وتصورها الإنسان مفيدة للبشر، قد توفر حلولا لمشاكل لم يوفرها الطب الحديث القاصر فيما لو أخذت بعين الاعتبار وعدم التعالي.

ــ "كل التقدم ده وتقولي الطب قاصر؟"

ــ "قاصر لحد متلاقي دوا لكل مرض وحل لكل مشكلة"

هل كان أبى مريضا إلى هذا الحد الذي تيقن كل الناس من عدم قيامه منه، فعرض عبْد الوَهابْ غُصْن الزواج من أمي قبل أن يموت أبى، ورد الدكتور حسين كامل الكشف لها لتشترى به لحما للعيال وأشار نحونا دون أن يكتب علاجا، وأضافني مدرس الدين لكشف اليتامى ودفعنى للصندوق الخلفي للسيارة الذاهبة إلى المدينة، توقفت السيارة أمام مصنع الأحذية، امتعض صاحب المصنع وقال:

ــ "بس أحنا متفقين على عشرة ودول حداشر"

ــ "ربنا يديك طولة العمر.. الولد الحداشر أبوه لسه ميت من أسبوع"

صمت الرجل فرفع أستاذ الدين يديه بحذاء رأسه ممتنا ومنحنيا، التفت نحونا وعيونه مغرورقة وأشار بصحيفته المطوية فدخلنا المصنع الكبير. احتضن كل منا حذاءه ونحن نستقبل الهواء البارد بصدورنا في الصندوق الخلفي للسيارة فيما كان الأستاذ مازال مبتسما ينبهنا من الكابينة:

ــ "افرحوا يا ولاد.. بس خدوا بالكم حد يقع.. ربنا يستر"

ولم أستطع أن أفرح بالحذاء لأن أبى مات في اليوم التالي.

(٢٠)

لم يكتب لجدتي بُغْدادْ أن تعيش – وقد احترقت أحشاءها بفعل قالب الطوب الساخن – لترى نبوءتها قد تحققت، فصار درب العَلاوْنَة والذي ظل لزمن مارقا ومتجها نحو ترعة الفلْفلَة وموليا ظهره – عكس كل دروب القرية ــ لداير الناحية ومقامات الأولياء الأربعة، ببنائه المختلف وبوابتيه الخشبيتين اللتين تغلقان الدرب من ناحية داير الناحية وترعة الفلْفلَة، ببيوته الواسعة، وأحواشه تلك وقد صار خرابة كبيرة تعشش بها الغربان وتنعق، بينما جفت أشجاره أول ما جفت من البراعم فتوقفت عن الارتفاع. صار الدرب عبرة لأيام خلت، و صارت رئيسة عُلْوَان ضعيفة منحنية،تضع النظارة الطبية، يطل جمال قديم من تجاعيد وجه أبيض وشعر أحمر مازال تحت إيشارب ملون وأسنان كاملة وناصعة، تبدو صغيرة لنطقها الهادئ والسليم وقدرتها على توصيل ما تريد قوله دون أن تسمح لمن أمامها بمقاطعتها أو مساعدتها في الإفصاح عما تقصد، وإحساسها الدائم بالعزة والأصل، تبدو صغيرة بينما هي تجاوزت السبعين، تصرخ جدتي بُغْدادْ بأن أسكت لأنني أهبل ولا أدرى الطبل في أي حارة، وتكور يديها وتهزهما:

ــ "سبعين إيه.. ده أنا كنت عيلة ورئيسة دي كانت فايرة وصدرها بيتهزز قد كده قدامها"

كانت رئيسة لا ترتدى إلا الهدوم الفاتحة بزهور صغيرة غامقة، تفوح منها رائحة القرنفل والورد البلدي، مبتسمة لا تنزل من سريرها المرتب في حجرتها المرتبة والنظيفة كأنها مدهونة بالسماوي منذ قليل، أدويتها مرصوصة في دولاب وهمي بالحائط، ينتصب دولابها القديم قصيرا على بلاط الحجرة الملون والمغسول دائما عليه كليم بنى، يعتني بالحجرة زوجات الأبناء والأحفاد، لا يدخل أحد حجرتها قبل أن يطرق الباب وتأذن له، ولا يدخلون الدار حتى يسألوا عن نينه رئيسة، يسلمون أولا ثم يدخلون للشخص المطلوب وعند الخروج إن كان بابها مفتوحا فلابد من قبلة الوداع والاطمئنان على سبب الزيارة، مش خير؟ فيه حاجة؟ بينما يكتفي بالتسليم بصوت عال دون انتظار للرد إذا كانت مستريحة أو تغير هدومها أو مع الطبيب:

ــ "أقعدي بالعافية والصحة يا نينه.. مش عايزة حاجة؟"

كانت رئيسة موسوسة لا تحب سيرة المرض، تستدعى الطبيب على فترات للاطمئنان دون أن تشكو بعلة، لا تشرب الماء إن نظر إليه أحد، تبالغ في غسل يديها، لها كوبها الخاص وأطباقها وأدواتها، قليلة الأكل ولا تقربه إلا إذا شمت رائحة الزبد البلدي تفوح منه، لا تأكل

من الطيور إلا الحمام ومن اللحوم إلا الجمال الرضيعة، ولا تؤكل زوجها إلا خـصية العجـول المعلوفة، يعرف الجزارون طلبات الست رئيسة. حرمت السمك على درب عُلْوَان كله بعـد أن أصابها الربو الشعبي أربعين سنة، كما جعلت ذهاب العَلاوْنَة في عدد لا يقل عن ثلاثين رجـلا للمقابر في منتصف ليلة الدفن عادة،ينصتون في عز السكون لجدران القبر الأربعـة، كـاتمين أنفاسهم فربما كان الميت غافيا أو مغمى عليه فيسمعونه حين يصحو ويستغيث ولو بالهمس، ولم تكتف بتوصيل لمبة فاشترطت أن يكون بمقبرتها شباك مغلق من الداخل وأوصت إن ماتت أن يفحصها أكثر من طبيب لتأكيد الوفاة.

عكس كل دروب القرية التي تبدأ من داير الناحية وتتجه مغلقة نحـو المركـز، كـان درب عُلْوَان يبدأ من داير الناحية شاردا كثعبان نحو الترعة والقنطـرة، لـه دور مميـزة واسـعة بحجرات منفصلة وأحواش في المنتصف، وكانت جدتي بُغْدادْ تقول مشمئزة إنه درب النجاسة، وترفض المرور منه إلا ما ندر فتلف رأسها بالطرحة وتتف على شمالها أمام دار رئيسة:

ــ "مرة بنت كلب ملعب وكافرة"

طلبت جدتي أن أنتبه فلا تغرني الملابس الملونة ورائحة الورد والقرنفل والكلام المعـسول، هي امرأة معجونة بالنجاسة، مات زوجها فلم تبك وجلست في هدوء، تقبلت الأمر فلم تصرخ ولم تشل التراب على رأسها، لم تشق الهدوم أو تتمرغ في الطين وخيرت النسوة اللواتي جئن للعزاء بين الجلوس باحترام دون صوت أو دمعة أو الخروج من بيتها. كان خط الكحل رفيعـا حول عينيها لم يبتل بينما عُلْوَان مسجى على سريره بنزيف في المخ أسـلمه إلـى المـوت، فاختارت جدتي بغداد الخروج وقد فاض بها الغضب :

ــ "لا دمعة ولاصوت!.. شفتوا المره الناقصة!.. كلب اللي مات ده يا ولاد والله جوزها؟"

النسوة تسربن في هدومهن السود خلف جدتي بُغْدادْ، ضربن المثل بها هي التي قتل زوجهـا فلم يفارقها السواد ورفضت حتى استئصال رحمها المدلى بين فخذيها أربعين سنة لأنهـا بـلا رجل وترفض أن يطلع عليها طبيب.

كانت رئيسة علوان لا تحزن على شيء، دائمة الجنابة، أورثت الكفر والنجاسة لأولادهـا، وأمرت الأخ بالنوم مع زوجة الأخ الغائب:

ــ "شوف مرات أخوك يا نبيل.. جوزها بره من تلات أيام"

و ثلاثة أيام غياب كثيرة عند رئيسة، تأمر عندها الأخ فيعاشر زوجة أخيه فتمتلئ عيناها ولا تنظر لأحد من الخارج. حين استيقظ الناس على خروج بطة زوجة ابنهـا الأصـغر مـسعود بقميصها الممزق شبه عارية، كان نبيل قد دخل غرفتها وكانت عروسا مـا تـزال، رفـضت مستغربة فقال:

ــ "عيب يا بطة.. أنا ومسعود واحد!"

صرخت فضربها بصفته الأخ الأكبر وفي منزلة الأب .مزق هدومها فخرجت لتحتمــي بحجــرة نينه رئيسة، فهدأتها رئيسة ونادته ووبخته لأنه غشيم ثم أعطته يدها وأمرتهما فــي حــسم بالذهاب لحجرتها، صرخت بطة واحتمت بدار حسنين أبو غز فلم تفعل رئيسة سوى أن أطلــت برأسها من الشباك وقالت لها أنت طالق . تشعر رئيسة أن رغبة ابنها فد فترت فتحضر له قبل أن يشكو طلع النخيل، تخلطه بالطعام وتنصح ببلح الطيب والأفيون والحلوى. وتأمر زوجتــه بالنوم إن طالت الشكوى وتشد لباسها وتدهنها بمسحوق ثم تنتظر قليلا وتدفعها إلى السرير وتغلق الباب عليهما. صرخت جدتي بُغْدادْ:

ـــ "جدهم كان يهودي.. والعرق يمد لسابع جد.. ما بقاش بُغْدادْ إن ما صبح دربهم ده خرابة"

لم يصدق الهادي علوان أن زوجته ماتت، فخلع عنها سروالها وظل يباشرها حتى شقــشق النهار ثم أبلغ رئيسة التي مالت على زاد المال وأوصتها بغسلها من الجنابة أولا قبــل غــسل الموت . هاجت زاد المال وبصقت في وجهه:

ـــ "أخص عليك يا كافر.. إخص على تربيتك"

مسح الهادي تفة زاد المال وخاصم أمه رئيسة حتى ماتت لبوحها بالسر الذى جعلته زاد المال لبانة في فم أهل القرية.

بينما كان من السهل التعرف عليهم: حلاوة ووسامة ووجوه مستديرة وشعور منــسدلة،كان يحلو لرجال قريتنا الجلوس على بغلة كوبري القنطرة، فيتاح لهم التطلع لنساء العَلاوْنَة حــين يخرجن في الصباح الباكر، مستحمات بشعرهن المنسدل واللامع وبشرتهن البيضاء والمشربة بحمرة طبيعية، يوشك الدم أن ينبثق من خدودهن، تسند أذرعهن البضة أواني ماء الجنابـــة، تترجرج صدورهن الفائرة أمامهن في نضارة، تتجسد الأرداف مغرية أثناء صعودهن المنحــدر المؤدى إلى الترعة، حيث يدلقن مياه الاغتسال بيضاء ونظيفة من كثرة الاستحمام، وبدا كــأن جدتي بُغْدادْ كشف عنها الحجاب حين بشرت من يتزوج من العَلاوْنَة بالفقر والهلاك، فلــيس للقرد جيب،و الغربان تأكل شهرا بلحا بينما تنبش بقية العام في الأكوام، والعَلاوْنَة لا يهتمون سوى بيومهم كأنما يأكلون آخر زادهم، رجالهم فجار لا يستغنون عن النساء ليلــة واحــدة، نساؤهم قحايب يفضلن الري من ترعتين، تعاطفت حكمت عُلْوَان مع خالهــا الهــادي حــين مرضت زوجته فرقدت له، ولما ماتت رفضت أن يبيت خالها حزينا في ليلة الوحدة فخلعــت ثياب العزاء ونامت في سريره.

كادت رئيسة علوان تنشال وتنحط من الغضب، هي التي ظلت في دارها الكبيرة ذلك العمــر الطويل تعقد الزيجات وتنصح نساء العلاونة بوصفات وتجارب تجعــل رجــالهن خــواتم فــي أصابعهن وتفخر بأن امرأة من العلاونة لم تترك فراشها ليلة واحدة، لأن فريدة ابنتها غضبت وتركت البيت لزوجها فؤاد السخن دون أن يسعى لردها في نفس الليلة. أوصت رئيــسة فــي ذروة الغضب إن ماتت ولم يطلع عليها النهار ألا تعود فريدة إلى زوجها. كانــت فريــدة قــد

أعادته إلى صباه، فأصبح لا يفارقها حتى في الشارع، يسير خلفها كأنه مربوط بحبل، لا يأبه بسخرية الناس. طلع النهار على رئيسة ولم تمت فسعى إليها فؤاد كي تعيدها إليه فرفضت. ساق عليها كبار القرية وكان يبكى وينهنه كطفل فرفضت. قَبّل رأسها ويدها ثم باطن رجلها حتى توافق فأصرت أن ينفذ شرطها أمام الناس أولا، وأحضرت لفؤاد السخن رغيفا وغمسته بخراء فريدة عُلْوَان فأكله.

(٢١)

ما الذي كان على أن أفعله حتى لا تقول مريم الحرايرى ـــ وأنا متكئ على سور الكلية محدقا في البعيد ـــ أنها تعلم بالضبط فيما أفكر الآن؟، تحدق في وجهي كمن يقرأ الطالع، تتكلم كأنها تراهن: تفكر في هيمنة الماضي وسطوته، تفكر كيف قدرت أجهزة محافظة القاهرة على عرب المحمدي فأزالت بيوتهم القبيحة وأرسلتهم بعيدا إلى مدينة السلام، لتقيم حديقة المحمدي، بينما لم تستطع الاقتراب، مجرد الاقتراب من مقام صغير للشيخ عبد السلام وهدان الحامدي. توقف الهدم وانحنى مرغما سور الحديقة ليظل المقام الصغير بقبته داخلها بينما يفتح بابه من الخارج مباشرة أمام باب كلية الطب ومستشفي الولادة! كانت مريم تقول بانفعال وتفرد ذراعيها في الهواء وتشير بإصبعها للمقام البسيط بطلائه الجيري المتساقط، موشكة دموعها أن تسقط وهى تهزني في حيرة، تسألني لماذا كنت متأكدا منذ بدأ الهدم من انتصار صاحب المقام، خليفة القطب والغوث سلامة الراضي؟ سألتني وهى تبكى لماذا أقف صافيا كمن ينهى الفاتحة ويمسح وجهه في رضا واطمئنان؟ قالت وهى تحدق في وجهي إنها تعلم أن حديقة المحمدي لا تروق الآن لي وأنني أقف في هذه اللحظة ربما في مكان آخر، وسط حقل كبير بنوار يتفتح ولا يأفل، يحيل الحياة سجادة كبيرة خضراء مفعمة بالأصفر وينتاب الكون ألق ونشوة. ما الذي كان على أن أفعله حتى لا أرى مريم وسط كل هذه الحيرة فأمسح دموعها لتتعلق بذراعي مقررة في نفس اللحظة أن تجيء معي لتميد الأرض من تحتي وتنفتح أبواب ولا تغلق.

ارتمت في حضني فشعرت بالوهن، كان بكاؤها حارا ومخلصا كيوم موت أبى فبكيت، كأنما لا تطيق الجلوس وأنا مريض، نهنهت:

ـــ "سلامة شبابك يا ضنايا.. إن شالله كنت بدالك"

لم تطق رؤيتي هكذا فأزاحت كيس الخوخ جانبا ودست ورقة بعشرة تحت مخدتي وباست يدي وخرجت مسرعة تمسح دموعها بالطرحة السوداء، فهل كانت عمتي غير الشقيقة فردوس؟ ثمة من أخرج خوخة ناضجة من الكيس وغسلها ثم قربها من فمي، كان إسماعيل فج النور، حدقتُ في وجوه الحاضرين، فلم أر مريم، أفل النوار فلاحت العيدان نحيلة وغدت سجادة

الأرض موحشة وقاحلة، فأدرت وجهي ولم أشعر برغبة في شيء وتساءلت كيف أتى بالخوخ بهذه السرعة ومنذ قليل فقط كان مقيلا تحت شجرة الخوخ الوحيدة، بين الظهر والعصر، أراقب شخيره المنتظم وأتسلق الشجرة بحرص كي لا يستيقظ، وقد لمست يدي الخوخة تلك التي أخطط لأخذها منذ فترة، جذبتها لتحت، انشد الفرع نحوي، كانت نيئة وخضراء وكنت أستشعر طعم الخوخ الذي لم أذقه، قطعتها فارتد الفرع لأعلى وخرفش بالأفرع الأخرى، فانتبه وانتتر واقفا فيما كانت رجلي تلمس الأرض، انطلقت على طريق الجميزة الترابي، تلاحقني أنفاسه المصممة:

ـ " والله لاجيبك يابن الكلب يا واطى.. لما تروح فين!"

انحرفت إلى مدق مسلم الترابي، نحو القرافة واجتزت القبور الواطئة فافتقدت خطواته الملاحقة، انحرفت على طريق المسقاة وتهيأت للنجاة فبرز أمامي من حقول الذرة، كيف اختصر الطريق وانتصب أمامي هكذا؟ هل كانت الخوخة في يدي حين ضربني؟ أوقعني وتنطط على صدري وقبل أن تنحبس الآهة في صدري كان يشتم وينط بكل غل:

ـ "يا ابن الكلب يا حرامي"

ـ "والرسول اللي أنا زرته ما تكسفش إيدي"

قلت كيف نضج الخوخ بهذه السرعة وكيف يقسم بالنبي الذي زاره وهو لم يحج، أدرت وجهي ولم تكن بي رغبة لشيء فبكى وقال إن عمتي فردوس ستموت نفسها إن لم آكل، كنت أحدق معصوب الرأس كمن يفيق من حلم وأنا أستعيد صراخ فتحي المزين من الفرح حين رآني عائدا للحياة، محدقا حولي كتائه، فباستني عمتي فردوس من رأسي وبكت من الفرح، وانفرجت شفاه النسوة الموشكة على النواح وهن يخلعن جلابيبهن السود ويحللن رؤوسهن المعصوبة ويبتسمن، وبكت أمي وهى تعاتب اسماعيل:

ـ "كده تموت الوله عشان خوخة نية يا اسماعين؟"

وكان جهاز الضغط والسماعة على ترابيزة الكتب الطبية بدهليز الدار المواجه لساحة سيدي عبد الله بهوائها الراكد العتيق وظل الحور على طرمبة الماء منزوعة اليد.

قلت بلا مقدمات وأنا ألهث من سلم السابع:

ـ "مريم مريضة جدا"

كما في صورتها التي بالصالة، كانت رزينة، لا تفكر في شيء محدد:

ـ "مين حضرتك؟"

ـ "تعبانة قوى.. في قسم الطوارئ في الدمرداش"

زعقت:

ـ "بتقول إيه؟ .. مريم في الحضانة.. إنت مين؟"

ـ "يونس عبد الفتاح.. زميلها"

خبطت رأسها، كمن تعتذر وتتذكر:

ـ "مريم؟! عندها إيه"

ـ "...............".

كنت أعرف أنها لن تجيء، كما أن مريم سترفض المكوث في المستشفي واستكمال التحاليل والعلاج، لمّت جدتي بُغْدادْ النوار الذي سقط في كفها والذي كان بالأمس فقط زاهيا ومبهجا وفركته وقربته من وجهها ثم بكت، ومسح سيدي عبد الله وجهه بضوء القمر وقال : يونس!، قلت نعم، قال من هنا ترى أكثر . انفتحت أبواب وانكشفت حجب، ورأيت أبى يعود من سوق الاثنين بصوف الغنم الأبيض والأسود والعسلي، ينثره في الشمس ويلمنا أسفل شجرة الحور في ساحة المقام لننفش الصوف، يدخلنا سراديب وغابات وأحراش ويقابلنا ببنات سلاطين وأمراء غاية في الحسن والغنى فيطلبن بالاسم عيالا فقراء ومشردين، يغدقن عليهم بالمال واليسر والنعيم بعد أن يمتحنونهم في الأمانة والشهامة والإخلاص، رأينا بأعيننا ممالك من طيور غريبة وحيوانات ووحوش وغيلان وعفاريت وسباع وحشرات وهوام والتقينا بملائكة وأنبياء وأتقياء وعصاة وقتلة وعرفنا الجنة والنار، لمسنا المكر والخديعة والميلاد والفقد والتلاقي والمعيشة في التبات والنبات وإنجاب البنين والبنات، بينما ذباب الظهيرة أسفل شجرة الحور يلسع أجسادنا دون أن نبالي ونحن ننزع من الصوف شوك اللباد المشتبك من تمرغ الغنم على الجسور، يمتلئ الطست بالصوف المنفوش فينبهنا كأنه يوقظنا من حلم وهو يقبض الصوف براحته قبضات يلفها على عصا من حناء ذات شعبتين بادئا الغزل بمغزله اليدوي، رأيت أبى طويل البال يغزل واقفا وماشيا وجالسا وينسج بدأب بشوكته الصلب المعقوفة ذات السن كسنارة، طواقى من الصوف ورأيت عيونه التي كانت مفتوحة تحدق في المتكلم كأنها تراه مطفأة فيما ارتكن المغزل والشوكة ومحلة الصوف في دولابه بالحائط، كان البشر كائنات طينية بحجم كائنات غَزّاوِي بن فاطمة وكانت حقول القطن تسطع بنوار مبهج وجدتي بُغْدادْ تجمع المتساقط وتفركه ثم تبكى وكنت أرى مريم هناك تركض كفراشة مضيئة بين النوار.

تمت في سبتمبر ١٩٩٩